بيانات رواية رماديتي:

- الرواية: رماديتي
- الكاتبة: غرام الجرموزي
- النوع: رواية
- تحرير وتدقيق وفكرة الغلاف وكلمته: رياض حَمّادي
- تصميم غلاف: أمنية محمد
- إخراج داخلي: سليل الفراعنة
- المقاس: ١٤.٨×٢١ (a5)
- الناشر: مؤسسة حزاوي للتنمية الثقافية نوفمبر ٢٠٢٥
- رقم الإيداع في الهيئة العامة للكتاب، صـــنعاء: ٣٧٤ لســـنة ٢٠٢٤. رقم الإيداع في الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق، القاهرة: (٣٠٠٦٨/ ٢٠٢٥)
- الترقيم الدولي، بالتعاون مع دار دان: 978-633-8284-16-9

فازت هذه الرواية بجائزة السـرد اليمني (حَزاوي) ٢٠٢٤، برعاية بنك اليمن والكويت. والرواية متخيل أدبي ولا تُعبر بالضرورة عن رأي كاتبها ولا رأي الجائزة وممولها.

حقوق هذه الطبعة محفوظة لمؤســســة حزاوي للتنمية الثقافية وللمؤلف. يُســمح الاقتباس في حدود الدراسـات والمقالات مع ضـرورة الإحالة إلى اسـم الكتاب وكاتبه وناشره "مؤسسة حزاوي للتنمية الثقافية"، وما عدا ذلك من استعمالات يُرجع للناشر وللمؤلف لأخذ إذن خطي.

(روايـــــــة)

رماديتي

تأليف

غرام الجرموزي

2025

إلى إبْراهيم:

كان حُبُّنَا دائمًا مُعلَّقًا بين الأبيض والأسود، في منطقةٍ رماديّةٍ لا تعرف النقاء ولا الظلام الكامل. في تلك المساحة الرماديّة عِشتُ أجمل لحظات حياتي وأكثرها ألمًا. كنتَ الضوءَ في ظلامي، والأملَ في يأسي، لكنَّك كنتَ أيضًا السيفَ الذي اخترق قلبي.

هذا الكتاب محاولةٌ لفهم تلك الرماديّة التي سادت حياتنا. هو رسالةُ حُبٍّ مختلطةٌ بالألم، وشهادةٌ على ما كان يمكن أن يكون. أُهديه إليك، لا فقط كتذكارٍ لحُبِّنا، بل كتحيّةٍ للحظات كلِّها التي شكَّلتنا وأحالتنا إلى ما نحن عليه الآن.

إِلى إِبْراهيم،
اَلذِي كان وسيظلُّ جُزْءًا مِن رماديَّتِيْ.

وِئام

❊ ❊ ❊

خيال فتاة شابة

في غمرة الظلام الذي يغلف عالمي، تتجلى أحرفٌ ساحرة تنبعث من خيالي المشتعل. خيالُ فتاةٍ شابةٍ تعشق الكلمات وتتغنّى بها. تسكن قلبي رغبةٌ لا تُطفأ إلا بكتابة قصصي وأحلامي. لكن وسط هذا الجمال الخفي أعيش واقعًا مظلمًا، حيث يقف والدي كسيفٍ حادٍّ يهددني ويحاول تكبيلي بقيود الجهل والعنف.

تدور حياتي بين زوايا منزلي المعتمة وبين أوراق دفاتري التي أجد فيها ملجأً آمنًا لأفكاري المكبوتة. أواجه تحدياتٍ لا تُحصى؛ فالمجتمع يرفض أن أكون امرأةً مبدعة، والأدهى من ذلك أن والدي، السيد عبد الرقيب، يرى نفسه ربًّا عليّ، ويقف سدًّا بيني وبين أحلامي.

وسط هذا الصراع بين رغبتي الجامحة في الحرية والقيود الظالمة المفروضة عليّ، ألوذ بعالمٍ خاص، عالمٍ تختلط فيه الألوان بلا حدود، وتتلاقى فيه الكلمات لتصوغ أحلامًا جديدة تنتظر أن تُحلّق بأجنحتها بعيدًا من قيود الواقع المرير.

❊ ❊ ❊

بداية العاصفة

كعادتي كل صباح، أمسك قلمي وأنثر بضع كلماتٍ على أوراقٍ مهترئة أخبئها تحت سجاد غرفتي. نعم، لست أكذب. هل حقًّا لا تعرفونني؟

أستيقظ كل يوم مسلوبة الإرادة، لا تقوى قدماي على حملي. أمضي متثاقلة إلى جوار النافذة، أرتشف قهوتي دفعة واحدة، وأسترق النظر إلى الخارج. اليوم، هناك طائرات تجوب السماء، وحرائق تعتلي المشهد، وبقايا أشلاء تعكّر صفو نافذتي.

لافتاتٌ باهتة، وأشخاص يجوبون المكان بلا غاية، يحملون في أرواحهم أكثر مما تحتمله أيديهم، مثقلين بالخذلان. يا ترى، لماذا رموا بأنفسهم إلى ضياع يتلوه ضياع؟

كلابٌ مذعورة تطلق نُباحها وكأنها تعزف أنشودة الموت. بقايا أرواحٍ عائدة إلى أرض الوطن تُسلب قبل أن تبلغ منتهاها. وبلمحة واحدة تلونت نافذتي بألوانٍ كان يمكن أن تبعث البهجة لو ظهرت في مكان آخر أو كينونة أخرى.

لم أستطع متابعة المشهد؛ أصوات الصواريخ تخترق أذنيّ، وتخترق روحي. وبين شهقات القنابل وصوت الرصاص ابتعدت عن النافذة. أراقب من بعيد سماءً رمادية تعكس الفوضى والرعب الكامنين داخلي، وأغرق في عالمي الخاص، حيث يلامس قلمي الورق ليخطّ مشاعري وأفكاري بحرية.

لكن فجأة، ارتجف عالمي على وقع خطواتٍ ثقيلة تقترب. تجمّدت وقد اجتاحني خوفٌ أعرفه جيدًا؛ الخوف من صاحب اليد القاسية، الذي يتنقّل بين جدران المنزل كظلٍّ مظلم. تسلّل الرعب إلى قلبي، وتوشّحت عيناي بالقلق، لا خشيةً من عقابٍ جديد، بل خوفًا على ملاذي الوحيد: كتاباتي التي تحمل جوهر أحلامي ورغبتي في الحرية.

صوت خطوات والدي وزفيره يقتربان من غرفتي. أتناسى خوفي وأركض نحو أوراقي، أحتضنها خائفة لئلا يمسك بي متلبسة بالجرم المشهود.

ضربتُ بقوانينه عرض الحائط. أنا في نظره عار على مجتمعي. أنظر نحو الباب، أنتظر دخوله متجهمًا كعادته. فتحه برفق على غير عادته، لكنه كان موصدًا من الداخل.

يا إلهي! كيف نسيت أن أفتحه قبل أن يأتي؟

بقلق يعتصر صدري، أسرعت إلى الباب، أبحث عن طريقة أُخفي بها أثر أحلامي. ارتجفت أنفاسي، واندفعت عيناي تبحثان عن مهرب. التفتُّ إلى الزاوية تحت السجادة. هل سيتمكّن من رؤيتها؟

دون تفكير، انغرست يدي سريعًا تحت السجاد، تحت سجادة الصمت التي تخفي معاناتي. وخبأت أوراقي الثمينة بعمق، وكأني أحجز لي مكانًا آمنًا في قلب الأرض.

قفزت ووضعت حقيبتي فوق مكاني العتيق، وتجاهلت فكرة الباب المغلق

وما قد يجرّه من عواقب. فقلمي وكتاباتي هما حياتي، ولن أدع أحدًا ينتزعهما مني.

فتحت الباب وقلبي يكاد يُنتزع من صدري.

كم مرة سأكرر: لا تغلقي هذا الباب اللعين؟ أكيد كنتِ تكتبين تلك الوقاحة مرة أخرى!

قالها أبي، السيد عبد الرقيب، صارخًا بعد أن أحسست بحرارة شديدة وحارقة تلفح وجهي على أثر صفعة أودت بي إلى مكان سحيق عمره اثنان وعشرون عامًا.

لكن... ما الذي قاله للتو؟

كيف يجرؤ على نعت كلماتي بالوقاحة؟ من هو ليحكم عليها؟ اقتران اسمه باسمي في الهوية لا يعني أنه يحق له السخرية من شغفي.

استجمعت قواي لأول مرة في حياتي بعد سنوات، لأقف صامدة في وجه عبد الرقيب الذي لا يقوى أحد على مجابهته أو حتى مخالفته. شعرت بحرقة تملأ قلبي، وحاولت جاهدة حبس دموعي تحت ستار الصمت والتحمل. أصبح وجهي كنار مشتعلة، يحترق بالألم والإهانة، ولكن لن أظل صامتة كضحية تحتسي مرارة الظلم دون أن تصدر حتى صوتًا. لأول مرة أشعر بوجنتيّ تزدادان اشتعالًا وعيناي تأبيان أن تمطرا فتزيداني قوة.

قلت بصوت مرتعش وخائف رغم علوّه:

ما أكتبه ليس وقاحة.

تلك الجملة الوحيدة التي قلتها قبل أن أُحبس في مجلس الرجال المهجور منذ عام مضى. أجلس الآن متقوقعة على ذاتي. هنا البرد شديد؛ ما من شيء يمكنه تدفئتي. لم أشعر أيضًا بالدفء طوال حياتي، فنحن عائلة لا نعرف للعناق سبيلًا.

لا أتذكر أني ارتميت في حضن أمي وحكيت لها عما يعتمل في صدري ويؤرقني. لم يخبرني أخي أنه يحبني، ولم أخبر أمي كم أحب اختلافها عني، وكم هي جميلة في عيني رغم قبح العالم في عينيها.

لطالما رسمت أفكارًا وتخيلات حول شعوري لو أن أمي احتضنتني وعانقتُ أبي. ماذا لو قالا لي إنهما يحبانني؟

سبحت في بحر من الأفكار المتشعبة، مسترجعة ذكريات أيام الضياع. استرجعت صورًا من الماضي، لوحات مشوهة بالألم والحزن. وبينما كنت غارقة في ذكرياتي البائسة، سمعت الباب يفتح. إنها أمي التي أكره، تلك السيدة التي لم تعانقني، لم تمسح الدمع من عيني قبل هطوله، تلك التي تخاف السيد عبد الرقيب، وكأنه إله. هل اعتادت الألم هي أيضًا؟ هل السبب هو أنها لا تحبه أم أنها تخاف منه؟ لا أظنني وأخي سبب بقائها هنا؛ فهي لا تكترث لنا، هي فقط تنفذ أوامر السيد.

أسرعي بارتداء ملابسك، اليوم زفاف والدك، قالتها ببرود يكفي لتجميد بقاياي. لم أنطق بحرف. قمت من مكاني وأفكار تزدحم في عقلي.

زفاف؟ أبي سيتزوج للمرة الرابعة، وسيأتي بعروسٍ جديدةٍ إلى منزلنا. ترى كم سيبقيها هذه المرّة؟ ثلاثة أشهر أم أسبوعين؟ ربما بضعة أيام؟ ليس هذا ما يهم! كيف سيتزوج والحرب قائمة؟ أشعر بالذعر يوميًا من أصوات الطائرات. الناس يعيشون حالة تأهّب وخوف من مجاعةٍ محتومة، وأبي ينفق ما لديه على زوجاته. كيف لا؟ وهو الشيخ عبد الرقيب.

إنه ذعري الأكبر.

بعد استقبال بلقيس ، زوجة أبي الجديدة، بابتسامةٍ مصطنعة، غادر الجميع للنوم. لم أستطع النوم. ظللت أفكّر في الصفعة التي تلقّيتها هذا الصباح، وكيف أني لا أحب والدي ولا أبغضه في الوقت ذاته. أشعر بالألم والغضب نحوه، وأتساءل عن السبب وراء هذا التصرف العنيف والظالم. هل أستحق كل هذه القسوة؟

رغم محاولاتي إبعاد تلك الأفكار السلبية والحزينة، إلا أن الظلم الذي أشعر به يبقيني مستيقظة ومتألمة. نمت بصعوبة والدموع لا تفارقني.

استيقظت مذعورة على صوت القصف وارتجاج المنزل، شعرت بالذعر والخوف يتسلل إلى قلبي. انغمست في الظلام، والصوت المدوي لآلات الحرب يزيد من شعوري بالضياع والخوف. استرجعت الأوقات السابقة التي تعرضنا فيها للقصف، وأنا أبحث عن ملاذ آمن وسط هذه الفوضى. خرجت مهرولة باتجاه الصالة الرئيسية، وجدت الجميع هناك، وأمي تجوب أنحاء المنزل وتنادي: وئام، أين أنتِ؟ وئام، وئام . ثم خيم الصمت عليها

حين وجدتني جالسة في صمت بجانب مراد، أخي الأصغر. لوهلة شعرت بعمق الحب بيننا، مراد الذي يتصرف وفق أهواء والدي كان يبكي خائفًا بصمت.

أمضينا نصف ساعة من الذعر والخوف، ثم هدأ كل شيء وانفض الجمع ليعود كل فرد إلى غرفته، وعدت أنا إلى ملجأي. استكنت لوهلة وأغمضت عيني محاولة النسيان، لكن الأفكار كانت ترتطم بخيالي دفعة واحدة كلما نويت الهرب منها إلى النوم.

فكرت مليًا في تصرفات والدي، هو الشيخ عبد الرقيب، ويعرف كبار المسؤولين ويدير أعمالهم.

استيقظت صباح اليوم التالي غير مبالية بشيء كعادتي. لم أشفَ من جراحي ولكنني تناسيت. صدق دوستوفيسكي: لا يُشفى المرء في البيئة التي جعلته مريضًا .

ارتشفت قهوتي كالمعتاد وهرولتُ مسرعةً إلى الجامعة. هناك حيث أستطيع أن أكون أنا؛ لا وجود لعبدِ الرقيب ولا أَعْيُنِه. في الجامعة، أكتبُني موشّحًا، وأرسم لنفسي جناحين، وأنفصل عن حبلي السري فأغدو طفلةً مستقلة، ولكنني لا أبكي؛ بل أعافر كي أنجح، وأسمو، وأحلق.

وكعادتي أمرُّ بشارعِ الستين، أتأمل بساطةَ الناس وسهولةَ التعايش. أمر بالمخبز وأشتري بضعةَ فطائرٍ كي أقي جسدي مجاعةً محتملة.

حين وصلتُ، استوقفني إعلانٌ عن مسابقةٍ جامعية لأفضل قصة، وأفضل شعر، وأفضل ممثل. دفعني حماسي في تلك اللحظة إلى التقدّم للمنافسة في المجالات الثلاثة. وبما أنني لا أفقه شيئًا في التمثيل، راودتني فكرةُ الانسحاب، لكنني سرعان ما تحدّيتُ نفسي قائلةً: أنا لها.

مضى أسبوعٌ وأنا منشغلةٌ بتحضيراتي لقصتي، وأمني نفسي بحصولي على المركز الأول. ولكن عندما جاء الوقت لأدون اسمي على غلاف قصتي المتواضعة، فكّرت في والدي؛ شعرت بعينيه تحدقان بي من كل اتجاه. تخيّلتُ ردةَ فعله حين يعرف أنني أنقش ذاتي بأحرفٍ على صفحاتِ قِصّتي، وهو الممحاة التي تمحوني وتنفيني. قررتُ وضعَ اسمٍ مستعار. استبدلتُ نفسي بأخرى؛ لن أحظى بفرصة الفخرِ باسمي.

انتهيتُ من تنقيح قصتي الأولى ووضعت الورق بجانب وسادتي واستلقيتُ وأنا أفكر وأحلمُ بالنجاح وبالسعادة. حلمتُ بالطمأنينة التي لم أشعر بها قط. فكّرتُ أن أشارك في إحدى أنديةِ القرّاء على الإنترنت وأنسى موضوعَ المسابقة. أريد أن يقرأَ الناس كلماتِي. جلستُ على سريري وأخذت اللابتوب وبدأتُ بالبحث عن نادٍ يمكنني المشاركة فيه.

كانت رحلةً شاقةً من البحث والتصفح أخذت مني وقتي حتى الصباح. ربما لم أكن أرغبُ حقًا بالمشاركة، فقد تهتُّ بين أحرفِ الكُتَّاب. تارةً أجدني أغوص في صفحةٍ، وتارةً تلامس قلبي كلماتٌ فتُثريه. إلى أن وجدتُ ضالتي في نادٍ اسمه كن أنت ، يشجّع الكتابَ المبتدئين أمثالي. أصبحتُ عضوةً فيه

وأُتيحت لي الفرصةُ لأكتب دون قيد، دون خوفٍ من أن يقرأ عبدُ الرقيب ما تخطه أناملي.

حين تكون ممتلئًا قد يُبكيك أن يناديَ أحدهم باسمك. حين تُجبر على تقبّل ذاتك، ليست تلك التي كنت تحفل بها، بل ذاتك المصطنعة، المستجدة والتي لا تدرين من أي مجراتٍ انتقيتها. أحفل بالذكريات، أغوص في جنبات أحلامي المتلاشية؛ يرهقني عبوسي، كذبي، بل زيفي. ليس لي مساحةٌ لأتحدّث كما أريد، وكأني مرغمةٌ على الصمت؛ أحاول جاهدةً الصراخ ولكني أحترق هنا، أتلاشى، وأفنى. لا أحد يلحظ كم الوجوم المطبق على قلبي إلى درجةٍ تنتابني نوبةُ ضحكٍ، تداهمني حين أرغب أن أطلق العنان لمطرٍ يروي ظمأَ وجنتي. نعم، أكرهها؛ فقد أتتني نوبةُ ضحكٍ على حينِ غفلةٍ فغرقتُ فيها حتى ظننتُ أني لن أنجو.

كانت هذه أولى كلماتي التي نَشرْتُها فور انضمامي.

هل أنتِ عضوةٌ جديدةٌ في النادي؟

استغرق الأمر بضعَ دقائقٍ فقط كي يقرأَني أحدهم، لكني لم أقوَ على الرد؛ كأن يداي شُلَّتا. لم أتحدث مع رجلٍ من قبل؛ أظنني لم أكسر قواعد عبدِ الرقيب فقط، بل حوّلتُها إلى أشلاءٍ غير مرئية.

كلماتك جميلةٌ وساحرة، تكتبين شيئًا بإحساسٍ مختلف.

شكرًا لك؛ سعيدةٌ بأنها نالت إعجابَك.

ابتسمتُ لا إراديًا. يا الله! كدتُ أنسى كيف يبتسمُ المرء، وفجأةٍ شعرتُ بباب غرفتي يفتح بقوة. لم أسمع وقعَ الأقدامِ، لم أترقّب وصول عبدِ الرقيب في تلك اللحظة؛ لقد ظهر فجأةً كظلٍ يحجب الشمس. ابتلعتُ الدموع من عيني ولا أعلم كيف تحرّكت يدي في تلك اللحظة وغيرت الصفحة لصفحةِ الأخبار.

اقتربَ عبدُ الرقيب ليرى ماذا هناك، وجدني أقرأ الأخبار فابتسم لأول مرةٍ في حياته. لوهلةٍ ظننتُ أني أحلم، لكنه ابتسم مرةً أخرى، ثم تنهد بعمقٍ قبل أن يقول:

أنا مسافر الأسبوع القادم، لدي بعض الأعمال أنجزها خارج البلاد .

ارتفع حاجباي وصعقت من الخبر قبل أن أجيبه بغباء:

كم ستطول مدة سفرك؟

لماذا؟ ما الذي تنوين فعله في غيابي؟ ثم عقد حاجبيه بغضب وبانت تجاعيد عينيه وهو يقول:

تحدثت مع حارس أمن الجامعة. سيراقبك في غيابي، ممنوع الخروج من المنزل إلا برفقة مراد.

سكت لبرهة ووقف يتأمل غرفتي بعناية ويتفحص كل ركن فيها بعينيه المتقدتين قبل أن يستطرد قائلا:

من الأفضل لك أن تبتعدي عن فكرة الكتابة نهائيًا، وإلا سأحرمك من الجامعة أيضًا .

وقبل أن أنطقَ حرفًا واحدًا، تركني وغادر بكل ذلك برود. أصابتني الدهشة مرتين: تارةً لسفر أبي المفاجئ، وتارةً لتناقص ثقته بي وفرضه قوانين وخطوطًا تجرّني إلى غياهب التعاسة وانعدام الأمان. أردت أن أبكي وأبوح لأحدهم بما يختلج في قلبي من خوفٍ وهلع، لكنني أدركت كم نضجت في تلك اللحظة.

"لا ينضج الإنسان إلا حين يكون لديه الكثير من الكلام، لكنه لا يجد حاجة إلى أن يبوح به لأحد."

❊ ❊ ❊

روميو وجولييت

تتسلّل ذكريات الألم إلى عقلي كسِهامٍ غادرة، وتسكب جرعةً جديدةً من الحزن واليأس في قلبي الجريح. أستحضر صورة والدي وهو يمسك برواية روميو وجولييت، الرواية التي تحمل في طيّاتها عبقَ الحب، لكنها، للأسف، تحوّلت في حياتي إلى رمزٍ للعذاب والمعاناة.

أتذكر كيف اقتحم غرفتي غاضبًا، وكيف انكشفت الرواية الشهيرة بين يديه، وكيف هَوَى سوطُ حزامه بلا رحمة على جسدي الضعيف، تاركًا وراءه جروحًا غائرة في نفسي.

وسط تلك الأجواء المريرة، كان همّي الوحيد، وأنا أحدّق في الكتاب الممزّق، أن أعيده إلى شكله الأصلي، ثم أن أعيده إلى مكانه في مكتبة الجامعة.

حاولت أن أُغمض عيني لأهرب من الذكريات المؤلمة، لكن الصور استمرت في الانبعاث من عقلي كالشرارات المشتعلة. تألمت للحظةٍ أخرى بسبب الجرح العميق الذي لا يلتئم، ثم استعدت عزيمتي وعاهدت نفسي بأن أبقى قوية.

❊ ❊ ❊

هروبي

في زاوية غرفتي الصغيرة، تنبعث أنفاس الكلمات من قلمي كنسيم لاذع يتسلل بين صفحات الزمن. أتوسد الورق بعشق، وأخطُّ خيالي على صفحات بيضاء كالثلج، ألوّنها بأحاسيسي وأفكاري المتقدة. قررت أن أتحمل مآسي الليل وظلم الظهيرة؛ قررت أن أترك المنزل وأحمل معي قلمي وأحلامي. أتحررُ كطائرٍ مسجون، أرسم طريقي بين أضواء الشمس وظلال الأمل، أبحث عن مأوى لقلبي النابض بحبّ الكتابة، أهرب بعيدًا عن جحيم القيود، أفتش عن حريتي بين صفحات الحياة، بين ضجيج المدينة وصخب الشوارع.

مشيتُ بلا وجهة محددة؛ ترددت خطواتي كأنها ترقّب لما يخبئه لي الزمان. أنظر إلى المباني، أعبر ممرات الحنين والغرابة، وأراقب وجوه المارة كأنني أبحث عن جزءٍ من ذاتي في أعين الآخرين. وسط هذا العالم المليء بالحركة، حملت في داخلي همومي وأحلامي المتناثرة. كل ما أعرفه أني أسير نحو مكان لم أعرفه بعد، لكني في قلبي شجاعة وأمل بالعثور على ما أبحث عنه، حتى لو كانت تلك الوجهة مجهولة المصير.

دون أي تفكير ركبت أول تاكسي مر بي.

خذني إلى دار الحجر، من فضلك.

كانت هذه أول وجهة خطرَت في بالي؛ المكان الذي مُنعتُ من الذهاب إليه مرارًا: الرحلات المدرسية الممنوعة، والرحلات العائلية التي لا أعلم عنها شيئًا. كنا نبقى في المنزل؛ أمي وأحاديثها القليلة وتقليبها لقنوات التلفاز دون هدف، ومراد يعتمر بندقيته ويتوسّط مجلس أبي المكتظّ بأنواع الناس، وأنا حبيسة غرفتي أتوسد الأوراق وألتحف بالكلمات.

بعد نصف ساعة وأربع دقائق توقّف التاكسي. لم يطلب مني السائق الأجرة. كنت أحمل القليل في حقيبتي، لكني دفعت له نصف المبلغ الذي أملك، غير آبهةٍ بما ينتظرني. أنا هنا حيث أريد أن أكون؛ لا شيء يعنيني أكثر. نظر إليّ السائق نظرةً مستفزة، مدَّ لي ورقةً تحمل رقم هاتفه وأعاد النقود معها. ظلَّ يحدّق بي طوال الطريق. ترى ما الذي يجذبه في عينين أطفأهما البكاء؟ مزقتُ الورقة دون أن أنظر إليه، ثم مزقت النقود إلى أشلاء، ظننت أني أمزق نفسي معها. نظر إليّ باستغراب وغادر وهو يشير بيديه: مجنونة! لم ألتفت إليه ومضيت في طريقي، مشدوهةً بما أرى.

وادي ظهر. كثيرًا ما حلمتُ بزيارته؛ أن أرى كيف عاش أسلافُنا في القصر العتيق الذي يقف هائمًا على صخرةِ جرانيت وسط بساطٍ أخضرٍ وأشجارٍ متعرّجة. تتراقص أضواءٌ خافتة على جدرانه الضخمة المصنوعة من الحجر القديم، كأنها تروي قصصًا وأسرارًا مدفونة في كلّ حجرٍ فيه. تتألّق نوافذه العتيقة ببعض الضوء الذي يتسرب منها كعيونٍ تحدّق بفضولٍ غامضٍ في كلِّ من يقترب. تتدلى الأطلال النبيلة من قمة القصر كأنها تنادي بالحنين إلى أيامٍ

سابقة، وتذكّر بعظمةٍ تبخّر مع مرور الزمن. يخترق صوت الرياح الهادئة صمت القصر، يَمْزُجُ مع همسِ الأشجار ليخلق أجواءً من الغموض والتأمّل، كأن الريح تحمل معها أسرارًا مدفونةً في أرجاء المكان.

أردتُ أن أدع الرياح تداعب وجنتي، وأن أحدق في اللاشيء. اعتليتُ جبلًا عالٍ أستطيع منه أن أطلّ على مدينتي بشوارعها وناسها، وعلى ازدحام الشاحنات والدراجات وجميع وسائل النقل في المفترقات، لكني لم أرَ سوى جمال الطبيعة. انبهرتُ بالمشهد، مددتُ ذراعي كما في فيلمٍ، وأطلقت العنان لروحي لتطير محلّقة. رأيتُ قلوبًا منكسرة وهزيلة، وأرواحًا مثقلة بالحزن؛ بات السهرُ حليفها، وجافها جمال الأحلام. بقيتُ لساعات أحدق في الفراغ، ثم بكيت: بكيت ضعفي وحزني وانكساري، بكيتُ كلّ جزءٍ طاله سوطُ والدي وكلُّ عضوٍ احترق لوعةً من كلماته القاسية. أحقًا لا يفخر بي؟ إنه يكره أن أكتب وأن أسعى لأكون أفضل. لماذا يخاف من المجتمع؟ هل من العار أن أكون أنا؟ ماذا لو انتشلني من بؤسي ودعمني؟ سوف أسمو، أحلّق، وربما أحبه.

وقفتُ أجرُّ أذيال الخيبة وبدأتُ في النزول من قمة الجبل. حين وصلت، استوقفني أحدهم. رفعت رأسي لأنظر إليه: كان شابًا طويل القامة، ذا بنية متوسطة، شعره أسود تتدلّى خصلاتٌ منه بأناقة على وجهه، وعيناه واسعتان، تتسعان لالتقاط كل تفاصيل العالم. وقفت متبلدة لم أنطق بشيء.

العالم لا يستحق أن تذرفي دموعك من أجله.

ابتسم ابتسامة خفيفة ثم أضاف:

هل أنت تائهة؟

لا شأن لك بي، من أنت لتتحدث معي؟

مشيت بضع خطوات وسمعت نباح كلاب يدوي، فهرولت عائدة إلى المكان نفسه. وجدته يضحك. أضحكه خوفي. نظر إليّ مليًا ثم قال:

هل أرافقك إلى المنزل؟ الوقت متأخر جدًا.

نظرت إليه فتذكرت أني هربت من المنزل. إلى أين سأذهب؟ أظنني سأعود إلى وكر الوحوش.

من فضلك. أجبت، ومشيت بمحاذاته.

لم يقل شيئًا وبقيت صامتة بدوري. مشينا حتى منتصف الطريق، لديه هالة مختلفة؛ أظنني أكره جميع الرجال. يشبه عبد الرقيب، متسلط، بل كمراد، لا يفقه شيئًا، مجرد تابع.

قاطع أفكاري سائلًا:

لِمَ كنت تبكين؟ يؤلمني أن أجد امرأة حزينة، لا تستحق المرأة الحزن ولا الدموع.

صمت وتنهد ثم أضاف:

بكت أمي كثيرًا في طفولتي، ليتني كنت أفهم ما كانت تمر به .

النساء عاطفيات بالفطرة، نحن نبكي ليس من فرط الشعور، نحن

نبكي التراكمات.

أعتذر لتطفلي، أنا حقًا لا أحب حزن النساء.

توقفتُ عن المشي ونظرت ناحيته:

ما الذي تستطيع تغييره؟ جميعكم سواسية: أنت وأبي ومراد، كلكم وجوه متعددة للألم ذاته . يا لحماقتي! لماذا أتحدث عن والدي ومراد وكأنه يعرفهما؟

اسمحي لي أن أعرفك أكثر .

قالها دون تردد.

هو لا يعرفني. وجدني أبكي وحيدة على قمة جبل. هو حقًا لا يفقه شيئًا. خيم الصمت لبقية الدقائق حتى وصلنا إلى موقف التاكسي. تقدم وتحدث مع صاحب التاكسي، ثم أومأ لي. ذهبت إليه، لم أكن خائفة منه، لم أعد أشعر بالخوف. جلست في المقعد الخلفي، وهو في المقعد إلى جانب السائق. التفت إليّ بكامل هيبته وعطره الأخاذ.

أين هي وجهتنا؟

شارع الستين، كلية طب الأسنان.

وصلنا. وترجلت من التاكسي. بحثت عن محفظتي. لقد نسيتها على قمة الجبل كما نسيت روحي هناك. أنا أسير بلا روح. نظرت إليه فإذا به قد أعطى الأجرة للتاكسي.

سألني عن وجهتي. ليست لي وجهة حقًا! كيف أخبر غريبًا لا أعرف حتى اسمه عن هروبي؟ استوعبت في تلك اللحظة؛ لقد هربت من المنزل. كانت الساعة التاسعة مساءً، أظن أنهم يبحثون عني. ماذا لو عدت؟ سيقتلني مراد دون أدنى شك. أمي، ماذا ستفعل! ستخبر أبي كعادتها. سيقتلونني. استجمعت قوتي ونظرت إليه:

منزلي في الشارع الخلفي. لا أتوقع منك مرافقتي.

ضحك بعفوية:

لا تخافي، لن آتي لاختطافك صباح الغد. أريد فقط أن أطمئن أنك وصلت بأمان، وبالمناسبة أنا أعيش في هذه المنطقة، لقد جمعنا طريق واحد وقدر واحد.

مد يده إليَّ ببطاقة صغيرة عليها رقمه وبريده الإلكتروني.

اتصلي بي إذا احتجتِ لي.

ولِمَ سأفعل؟

أنا مصمم. ربما تحتاجينني لتصميم غلاف كتابك. وابتسم ابتسامة النصر.

يا إلهي، كيف عرف أني كاتبة؟

كيف عرفت أني أكتب؟ هل تعرفني؟ سألت باهتمام.

صدقيني، لا أعرف حتى اسمك، لكني رأيت عينيك تعجان

بالكلمات. رأيتك وأنت تكتبين على قمة الجبل، ذاك الاستغراق في التمعن والكتابة لن يكون سوى لكاتبة.

تأخر الوقت، يجب أن أذهب .

هرولت مسرعة من أمامه بعد أن اختطفت البطاقة بخفة من يده. كنت متوتّرة للغاية؛ اشتعلت كلماته في صدري كشررٍ لا يطفأ. لقد عرفني أحدهم، قرأني دون أن أشعر.

وصلت إلى المنزل، أخرجت مفتاحي ووضعته في قفل الباب. كنت أمني نفسي بصفعة واحدة تنهي كل هذا. فتحت الباب، ولم يكن هناك أحد. الأنوار مطفأة، أمي ليست هنا على غير العادة، مراد أيضًا ليس في المنزل. انطفأ منزلنا منذ سفر والدي، لم يعد يقصد منزلنا أحد. لم تعد أيادي التحكم تتسلل ليلًا إلى غرفتي وتعبث بمذكراتي. بحثت في جميع أركان المنزل، لم يكن هناك أحد. التفت فإذا بوالدي يقف خلفي مباشرة ويوجه نحو رأسي مسدسًا.

تلك الصفعة التي تخيلتها كانت أكبر من خيالي. لم يضربني كعادته، لم يشد شعري وينهال باللكمات على فكي كما يفعل دائمًا، لم يعصر يدي حتى تتمزق أربطتي، إنه الآن يعصر قلبي. كيف يوجه هذا نحوي؟ هل لأنه حقًا يريد قتلي؟ اقترب مني أكثر، كانت إصبعه على الزناد. حركة واحدة كفيلة بإنهائي، سأنتهي حتى قبل أن أبدأ. اقترب حتى أصبحت فوهة المسدس على ناصيتي. كان يشتعل غضبًا ويكز على أسنانه بقوة. أنزل المسدس وسألني:

أين كنتِ؟

في دار الحجر.

لا تجبريني على وضعه ثانية على رأسك.

لا بأس، لقد وضعته من قبل على قلبي .

وأجهشت بالبكاء كما لم أفعل من قبل، وكلي رغبة في أن يقتلني، أن ينفيني بعيدًا عن أمواج الحياة.

لم يقوَ على فعلها. أدار ظهره ورحل. رحل الجميع، وتلاشى الضجيج. بقيت قابعة وحيدة في ظلامي. سندريلا هي أنا، غير أن سجاني ليست زوجة أبي، إنما أنا المجني عليه والجاني.

اكتشفتُ بعدها أن والدي قد عاد في ذلك اليوم، وعندما لم يجدني منعه كبرياؤه من البحث عني. بأي وجه سيقابل العالم إن عرفوا أن ابنة عبد الرقيب لاذت بالفرار! وبدل أن يبحث عني، ضرب أمي. امتدت يده ليجرح أكثرَ من يحبُّه؛ أخذها إلى بيت والديها المتوفيين والمهجور إلا من الأشباح. تركها هناك وحيدةً تندبُ جراحَ عمرٍ كامل. طلقها بعد كلّ هذه السنوات. ظننتُ أن هروبي الكاذب كان سببَ عذابها، سببَ انهيار حياتها. وفي الوقت نفسه اعتقدتُ أن أمي ربما تعيش، مع أثاث البيت المهجور، حياةً أفضل مِن هذا المعتقل. أمي تستحق السعادة. كل النساء تستحق السعادة. لا أحبُّ أمي، لكنّي أكره أن أراها تُعامل بهذه الطريقة. هي لا تستحق هذا كله.

وأخيرًا فتح مراد باب سجني، أو بالأصح مجلسي، رفيق أيامي:

أبي سمح لك بالخروج لتنظيف المنزل وطهو الطعام.

جلتُ أرجاءَ البيت؛ المكان غارقٌ في الغبار، كأن الأشباح تسكنه. أطباق متراكمة غير مغسولة، وماءُ المزهرية التي تحبها أمي لم يُستبدل منذ أسبوع؛ ذبلت الأزهار وجفّت حديقتنا. فتحت غرفةَ أمي فوجدتُ ملابسَها متناثرةً في كل مكان، بعضها ممزق، وبعضها ملفوف في أكياسٍ بلاستيكية. تقدمتُ نحوها، شممتُ رائحتها؛ افتقدتها حقًّا. لا أحبُّها، لكنّي أفتقدها.

أخذت كل ما يتعلق بها، وقضيت النهار كله أنظف المنزل. انتهيت وذهبت لأضع مقتنيات أمي في المخزن. فتحته ووجدت اللابتوب القديم الخاص بمراد. تنفست الصعداء، أخذته وهرولت مسرعة إلى غرفتي. لم أجد مفتاحًا، الباب لا يوصد، لكني لم أهتم. بحثت عن وصلة شاحن وجلست. أتمنى أن يعمل. اشتغل بالفعل. فتحت حسابي الخاص، تصفحت المنتدى، وجدت عشرات التعليقات والإعجابات على منشوراتي. شعرت بالسعادة. أغلقته بسرعة؛ كنت خائفة أن يأتي أبي ويجدني. وبينما أخبئه في إحدى خزائني، سمعت صوت مراد، كان يقف خلفي.

❊ ❊ ❊

إبراهيم

تذكرت حقيبتي التي كنت أحملها حين عدتُ من هروبي الفاشل. فتحتها ووجدتُ البطاقة. لم يكن في المنزل سواي، ومراد لم يكن يعلم بأمر اللابتوب. خضنا في تلك الليلة نقاشًا عميقًا، وللمرة الأولى أخبرني أنه يَمقُتُ والدي، ويكره أن يكون قطعة شطرنج تُحرَّك دون أن يختار.

علاقتي بمراد كانت بائسة؛ لم يكن صامتًا ناحيتي فحسب، بل اعتاد أن يكون يدًا تابعةً لوالدي، تحركه متى شاء. هو لا يعني لوالدي الكثير، مثلي تمامًا. نحن قطعٌ اعتاد تحريكها ليستفيد منها في خططه الهجومية والدفاعية: عندما يهاجم الناس ويتكبّر عليهم يستخدمنا ويستغل إنجازاتنا كأهم ما لديه. ويدافع بنا عن مملكته التي لا وجود لها سوى في عقله. يرمينا في وجه العدو فنكون أول من يؤسر. يفضل قطعًا كثيرة علينا، قطعًا تحميه، لكن لا شيء يحميه هو نفسه. كل من ظنّ أنهم حوله غدروا به: غدر به جنده المخلصون، وغدرت به زوجاته، وغدرت به أنا حين لم أعد أبالي بما يفعل، حين لم يعد يعنيني كأب.

فتحت بعجلة حسابًا على فيسبوك، وبحثت عن اسم ذلك الذي التقيتُه في دار الحجر. كان اسمه إبراهيم. تصفحتُ حسابه بسرعة، ثم أرسلت له طلب صداقة دون تردد؛ أردتُ شكره على معروفه معي. وبينما أتنقل بين صوره الشخصية ونماذج أعماله التي أعجبتني، وصلتني رسالة منه:

هل أنتِ الشخص الذي أتوقعه؟

لا أعرف من الذي تتوقعه.

اسمك وئام؟ اسم جميل.

أريد أن أشكرك.

لا داعي لذلك، أنا من يريد شكرك.

لماذا؟

لقد جعلتني أقابل جميع النساء في طفلة واحدة تبكي على قمة جبل.

إذًا فقد عرفتني؟

كنت أنتظر رسالة منك طوال شهر. هل تريدين تصميم الغلاف؟

أنا لا...

لم أتمم عبارتي؛ أغلقت اللابتوب بسرعة وأعدته إلى مكانه. خبأته كأثمن أشيائي. كنت خائفةً من متابعة الحوار. جعلني عبد الرقيب أنثى خائفة، هزيلةٌ تخشى مواجهة العالم.

بعد شهرين عدتُ إلى الجامعة. لم يستطع والدي منعي من الذهاب بعد انتهاء الإجازة؛ كان خائفًا أن يعرف أحدهم بما حدث. هو لا يكترث لي؛ فقط يخاف على صورته أمام الآخرين.

عدتُ لأكتب بشغفٍ أكبر. أنا الآن وحدي؛ أبي ليس هنا ليمزق دفاتري أو

رواياتي المفضلة. أقضي ساعات فراغي في مكتبة الجامعة؛ أكتب وأقرأ. أغرق بين هذا الكم الهائل من الجمال. وحين أنتهي من سرد حكايات لن يقرأها أحد، أُخبئها في زاوية لا يذهب إليها أحد؛ حيث كتب شكسبير وجبران خليل جبران. لا أحد يزور هذا القسم، ولا أحد يزور المكتبة أساسًا؛ أنا الوحيدة التي أتلذذ بعبق التاريخ، أحب رائحة الكتب حتى غبارها.

عدتُ إلى المنزل فلم أجد والدي. أخبرني مراد أنه ذهب إلى صعدة لحل بعض المشاكل وأنه سيغيب ليومين.

وأنت، أين ستذهب؟

ليس من شأنك، سأغيب الليلة أيضًا. كل شيء موجود عندك في ثلاجة المطبخ.

ذهب ناحية الباب ثم عاد مسرعًا وأضاف:

سأوصد الباب من الخارج بالقفل، هذه أوامر أبي. غدًا لن تذهبي إلى الجامعة.

جلست متكورةً في زاوية غرفتي، أشعر بالبرد والخوف. أفتقد أمي، وليس بإمكاني مغادرة المنزل أو حتى الاتصال بها.

ذهبتُ إلى المطبخ، صنعت كوب قهوة، وتناولت بعض الفواكه. تذكرت أني وحيدة؛ أبي ليس هنا. لِمَ لا أفتح المنتدى وأكتب؟ ابتسمت بسعادةٍ بعد فترة طويلة رسم الحزن تعاليمه على وجهي. فتحت اللابتوب. وصلتني رسالة

هزّتني بقوة كافية للإيقاع بي. كانت من إبراهيم، قال فيها:

بين رغبتي في محادثة أسيرة الصمت ورغبتي في الابتعاد، أظنني أغرق دون أن أدري. أنا نار، فأين ثلجي؟ أنا سراب، فأين صحرائي؟ أنا نقطة على السطر، حرف تاسع وعشرون لم يكتب بعد، فهلّا كتبتني؟!

قرأت رسالته مرارًا؛ لم أستطع إخفاء دهشتي وسعادتي. لكن شيئًا ما دفعني لأن أجيبه بعد ثلاث ساعات من تأمل كلماته:

أنا ثلج وسراب، أنا ثقب في جدار أحدهم يبغضه كلما نظر إليه، يحاول تغطيته، وربما يهدم كل شيء فوقه ليخفيه. تعبت وأنا أرى العالم فقط حين يأتي أحدهم ويبعد تلك اللوحة الصماء لينفض عنها غبار الأيام. هل أنت من سيمسح الغبار بين الحين والآخر؟

لم يسبق لي أن نظفت لوحات منزلي ولا لوحات أخرى صادفتني، ولكني سأكون سعيدًا بهذه المهام الجديدة.

ابتسمت على رده المقتضب والمعبر. لم أستطع إضافة أي شيء آخر. أمضيت الليل بأكمله أعيد قراءة الرسائل، بقيت أحلل كل حرف كتبه. هل حقًا يعني ما كتب؟ إنها الخامسة صباحًا وعشر دقائق وما زلت أحدق في الشاشة كالحمقاء. ثم كتبتُ أخيرًا:

أظنني سأكتبك كحرف تاسع وعشرين، لكني سيئة في الكتابة،

حزينة، ممشوقة بالخيبات. ستعيش داخل ظلام روحي وستكون حرفًا كئيبًا، ربما تتلاشى بعد حين أيضًا.

لا بأس إذا كان هذا الظلام هو أنتِ، سأعلق فيه إلى الأبد. ما يهم هو أنني سأكون أخيرًا حرفًا معروفًا لك. سأكون في كلماتك كل يوم.

لكن كلماتي سجن، ورقة غير رابحة، محاولة أخرى فاشلة في برنامج الحلم. أنا لست كاتبة، لست شاعرة، أنا مليئة بالندوب.

أغلقت اللابتوب بسرعة قبل أن أتلقى ردًا. قضيت اليوم بأكمله أعاني، أتألم. شعرت مرارًا برغبتي في الوصول إلى كلمات إبراهيم، ولكني كبحت روحي، لا أريده أن يعاني. أنا أنثى تعيسة، ربما كنت سعيدة يومًا ما، لكني لا أريد أن أغرق في بحر تتلاطمني أمواجه، تقذف بي يمينًا ويسارًا، وأنا لا أجيد السباحة. أنا جسد هزيل مرت عليه الفصول بلون وطقس واحد هو الخريف. كأن كل السنة تشرين. أنا هي تشرين، مجرد وهم بالدفء، لكن لفحات البرد تقتلني وتقتل من أحب.

أنا تناقضات، حائرة في المنتصف، كيف لي أن أنجرف!

❊ ❊ ❊

طاولة الطعام

اجتماعُنَا حول طاولة الطعام في نهاية الأسبوع كان أشبه بغُرْفة تحقيق: لماذا فعلت ذلك؟ لمَ هذا لم يكن في مكانه؟ إنه اليوم الوحيد الذي نجتمع فيه كعائلة، مليء بالأسى، ولكنه الأسوأ على الإطلاق. كل لقمة أبتلعها في هذا اليوم ملطخة بدموع تستعصي على النزول. أختنق، أتلعثم حين يسألني أحدهم عن أي شيء. أعجز عن رفع نظري. وبين الحين والآخر أسترق نظرات لأرى ملامح والدي. أنا تعيسة حين يتعلق الموضوع بالآباء. أرثي لحالي حين أشاهد أبًا يمسك يد ابنته. وأتساءل: كيف هو يا ترى ملمس يديّ والدي؟ أود لو أمسك يده، وأن يمشي بجواري سعيدًا بي، فخورًا بما حققته وما سأحققه. لكنه شخص مقيد بالعادات، بالتقاليد وبأشياء كسرتني، كسرت كل مشاعر الأمان داخلي منذ كنت طفلة.

أمي أيضًا تسترق النظر بين الحين والآخر. هي لا تتحدث، لا ترد عليه حين يتذمر من مذاق الطعام. فقط تومئ وتطأطئ رأسها للأسفل وكأن فرعونها سيقطع عنقها في تلك اللحظة. هي أيضًا تعيسة ولكنها تشعر بالرضا وهذا ما يمنحها ذلك الهدوء. من المفترض أن تعني العائلة الضحكات والابتسامات. أنا لا أبغضهم، ولم أتوقف عن حبهم يومًا، بل توقفت عن حب نفسي.

منذ أن كنت في السابعة وذكريات الطعام مؤلمة. فوالدي لا يحب الانتقاد إلا

في أوقات الطعام. نحن لا نجتمع كل يوم، نحن عائلة منفصلة عاطفيًا. كل فرد منا تملؤه الندوب. أتذكر يومًا كنت في الصف الخامس وحظيت بعلامات عالية في المدرسة. كنت أنتظر موعد ظهور نتائج الفصل الأول لأريها لوالديّ. حققت أعلى العلامات في اللغات. ببراءة الطفولة أخرجت الورقة وعليها عبارة الترتيب الثاني . كنت فخورة جدًا. أتذكر ذلك اليوم جيدًا وكأنه شبح يحضر من الماضي ليزيد شقائي. مددت بالورقة لأمي بسعادة.

حصلت على الترتيب الثاني وحفل التكريم الأسبوع القادم.

الترتيب الثاني! تقولينها بكل سعادة! ألا تخجلين؟

بابتسامة شبه مستهزئة قالها أبي.

قالت معلمتي إني سأصبح شيئًا عظيمًا حين أكبر.

كانت نظراتي كلها سعادة وأنا أتطلع في وجه أبي وأمي.

سألني:

لماذا خسرتِ درجتين في مادة اللغة العربية؟

بسبب خطأ إملائيٍ في حرف الضاد.

وهل العظيم يكتب الضاد ظاء؟

وقف الشيخ عبد الرقيب غاضبًا ورمى الملعقة بقوة على الطاولة وتقدم ناحيتي ثم رمى الورقة في وجهي صارخًا:

في المرة القادمة لا تفتخري بغبائك، لا تريني نتائجك يا فاشلة.

ثم غادر غرفة الطعام.

امتلأت عيناي بدموع طفلة كسيرة، ضعيفة، تأبى الحياة إلا إذلالها. أتذكر مذاق تلك الدموع ومرارة تلك اللحظة وكأنها حاضرة الآن. انهمرت بغزارة ولم يقل لي أحد: لا بأس . لم أنتظر من أمي أن تحتضنني، ولا من مراد مواساتي. لو أن أحدهما قال لي فقط: لا بأس ، كانت كفيلة بتهوين الألم الذي اخترق روحي وترك قلبي نازفًا. هل من الصعب مواساة طفلة حزينة أو حتى شيخًا في الثمانين؟ كرهت نفسي، منذ أن كنت في الخامسة، وأنا أمقت نفسي.

بعد أن رأيت نظرة الشفقة في أعينهم لأول مرة، بعد أن وجدت نفسي لا شيء يذكر سوى هامشٍ على صفحات من ظننتهم يومًا أحبابي، سأسرد تفاصيلي بدقة، لن أترك جانبًا من الشعور إلا وسأكتب عنه، علّني بهذا أطفئ لظىً مشتعلة.

لكن ماذا سأكتب؟ أكتب شوقي وحنيني لماضٍ أليم، أم ذلي وهواني في حاضر دميم، أم عن موتٍ نفسي في مستقبل لا يبدو عظيمًا. كل ذنبي أنني أنثى حالمة، أفتعل الحب من صفحات سوداء، أنبش في الخراب عن بذرة أمل، أرى في الناس محاسنهم، وأغض طرفي عن عيوبهم.

❊ ❊ ❊

حين تسلل الحب إلى قلبي

بعد ثلاثة أشهر من آخر محادثة مع إبراهيم، قررت أخيرًا فتح حسابي. أردت أن أقرأ كلماته، فقد أحببت كوني مرئية، لم أعد شفافة، أصبحت مهمة، والخيار الأول. لم أجرب هذا النوع من الشعور؛ فقد عشت خمسًا وعشرين خريفًا من النكران. أنا الآن مُعرَّفة، اسم معروف، يفهمني من يقرأني.

بيدٍ مرتجفة وقلب يخفق بشدة، فتحت حسابي. لم يكن هناك أي إشعار. لا أقصد التعليقات الساخرة أو اقتراحات الصفحات للمتابعة أو طلبات الصداقة؛ كنت أنتظر إشعارًا محددًا منه. ربما كان انجذابه لي مؤقتًا، ربما أحب أن ينتشلني، لكنه وجدني أثقل مما تصور. لقد ترك الحبل بسهولة، لم يتمسك به كما أفعل أنا. غادرته بدوري وليس لي أن أعاتبه في خيالي المكتظ.

تركت أفكاري جانبًا لدقائق، ثم فتحت صفحته الشخصية. لقد نشر الكثير منذ آخر مرة تحدثنا فيها. أحسست لوهلة أنها كلها تعنيني.

كتبت منشورًا عابرًا، كلمات باغتتني فجأة:

مثقلة بك حد البكاء، أحاول جاهدة ومرغمة استمالة عواطفي، لكنني مجددًا أقع فيك. مثقلة بك لدرجة أنهم يجدونك في أحرفي، بين طيات عينيّ، وفي مكتبتي. قل لي بربك، أما من سبيل للقاء؟ أم أن دنياي جارت والثمن هو البكاء؟ مثقلة أنا بتفاصيلك، أجدك في

فنجان قهوتي، وفي أركان ذاكرتي حاضرًا مهيمنًا كعادتك. أمر بك كل يوم، أحادثك، وأجد الجميع يحدقون، مجانين هم لا يفهمون، يخالوننا مجرد امرأة وسراب. لا يعرفون أنك حاضرٌ منيرٌ. وحين أنتهي من محادثتك، أعود للتقوقع في الزاوية ذاتها مع الفنجان ذاته، أشعل فتيل ذكرياتك، فتنفجر في قلبي عبرات، وأتذكر أني كنت أنيستك ذات مرة.

لم تمر سوى ثلاث دقائق حتى تلقيت إشعارًا جعل أطرافي ترتجف وأنفاسي تتسارع. قرأت رسالته في ثانية، لكنها بدت أطول من الثلاثة أشهر التي تلت اختفائي، أطولٌ حتى من حياتي:

أنا لست كاتبًا، أنا قارئ، ووجدت كتابي أخيرًا. كتابي هو عيناك، رأيتهما مرة واحدة وقرأت كل مشاعر البشرية تتزاحم على أهدابهما.

على مكتبي... ليس مكتبًا في الحقيقة، لكني أسميه كذلك لأنه المكان الذي أفرغ فيه ذاتي. أنتشل نفسي بصعوبة، وأضعني في كتاب، في قصيدة، في قافية، أو حتى في تاء مربوطة. في المكان نفسه، كل ليلة، أحاول ترميم ندوبي. من المكان ذاته أراقب النجوم وهي تدنو. أراقب سماءً زرقاء توشحت بالسواد، فأجدني ممتزجةً بذلك السواد السماوي. لكني لستُ من أهل السماء. أتظن أن المطر برق ورعد وثلج وماء؟ ألم تعرف أن السماء قد أمطرتني كثيرًا؟ ألم تلمح

تفاصيل حضوري في الأزقة، على جنبات الطريق، فوق سطح منزلك، أو متناثرة في الهواء؟ أعيد لملمة شتاتي وأعود، أنزوي في مكتبي... ألتقط علبة أقلامي لأرمم ما أتلفته هناك، أقرر ألا أهطل من جديد، وأعاهد ذاتي المتناثرة. غير أني، في لحظة، أجد السماء وقد توشحت بالسواد ذاته مرة أخرى.

لا تنزوي، ولا تتطايري في الهواء، لو كنت مطرًا سأستقبلك كتراب الأرض يا وئام. هل لي بسؤال؟

بالتأكيد، تفضل.

أعرف أنك مرهفة المشاعر، أجدك حزينة مما يجعل قلبي ينفطر. هل يحق لي معرفة الأسباب؟ أريد أن أفهمك أكثر.

أنا نكرة، يجب محوي وتعديلي، كل ذنبي أني أكتب ونار والدي تحرقني.

أنت لست نكرة. أنتِ ماسةٌ نادرة تتألقين بجمال فريد. كتاباتكِ تنبعث منها روح الإبداع والعمق، ولونكِ الخاص يضيء عالمي. لا تدعي كلمات والدكِ تحرقكِ، بل اسمعي صوت قلبكِ واتبعي شغفكِ. أنتِ قوية ومبدعة، وأنا هنا لدعمكِ ومساندتكِ في كل خطوة.

كيف ستساعد أنثى مليئة بالندوب؟

ما رأيكِ أن نذهب إلى أمسية ثقافية؟ يمكنكِ مشاركة كتاباتكِ. سأقوم بترتيب الموعد وتسجيل اسمكِ في قائمة المشاركين.

لا أستطيع مغادرة المنزل، أنا سجينة هنا.

أنا هنا لأستمع إليك وأكون داعمًا لك. إذا كنتِ تشعرين بالعزلة أو القلق، فأنا هنا لمساعدتكِ وتقديم الدعم الذي تحتاجينه. دعينا نبدأ بالتحدث عن مشاعركِ ونبحث عن طرق للتغلب على هذه المشاعر معًا. وئام، أرجوكِ أعطني فرصة.

المجروح من أبيه لا يُشفى أبدًا.

هكذا ختمت محادثتي معه، وتركته يعاني من البعد مرة أخرى.

كانت أمي قد عادت إلى البيت. ذهب أبي إليها ووافقت على العودة فورًا. جلست قبالتها فأحسست بمشاعر غريبة تربطني بها. أردت أن أخبرها عن مشاعري، مشاعر الحب البريئة التي بدأت بالتشكل والتشعب داخلي. كانت أمي جامدة كعادتها، تطالع شاشة التلفاز، لم تلتفت لي أساسًا. كانت تتجاهلني فيما مضى، لكني الآن غير مرئية البتة، إنها تحملني ذنب طلاقها، وخروجها من البيت. أمضيت دقائق أنتظر أن تلتفت إليّ، لكنها لم تفعل.

بلقيس أيضا ليست هنا، ولا أستطيع الذهاب إليها.

أشعر بالتيه، والضياع، والألم، والخوف. والحب. هذا الشيء الذي أختبره لأول مرة، أشعر بحلاوته تنساب داخلي، كومضة لطيفة تجوب معدتي، شعور لطيف يبقيني يقظة، ومنتعشة. هذا هو إذا شعور الفراشات.

زفافي

كان زفافًا مبهرجًا على غير العادة. كان أبي يحاول إخفاء وصمة العار التي ظن أنني وضعتها على جبينه. ما زالت هناك بعض الكدمات تغطي معصمي الأيمن، لكن المُنقِّشة تفننت في إخفائها بالحناء حتى لا يراها زوجي. ارتديت فستاني الأبيض لشخص لا أعرف سوى اسمه. أرسم ابتسامة أوهمت الجميع بسعادتي، فهذه أوامر السيد عبد الرقيب.

شعرت أني هشة. مشيت بخطوات ثقيلة بدت للحاضرين خجولة. كانت الدموع تلمع في عيني وتبدو لهم كأنها لمعة السعادة بزفافي. هل حقًا سأغادر كل شيء اليوم؟ سأذهب إلى حيث لا يمكن لعبد الرقيب الوصول إليّ. ولكن ماذا لو صادفت عبد الرقيب آخر بالصفات ذاتها ولكن باسم مختلف؟ أنا الآن أتألم، وصوت الموسيقى الصاخب يؤذيني. لا أرى شيئًا، أتجه نحو الفراغ. أتألم ليس من أوجاعي بل من أفكاري. أحارب الوقت وأسابق أيامي. أفكك أحلامي وأنثرها بعيدًا حيث اللامكان، لعلني ألتقطها ذات يوم.

الجميع يرقص سعيدًا بدلًا مني، أما أنا فلم أكن أفكر بشيء سوى بإبراهيم. أفكر فيما إذا كان قد أخذ الرسالة التي أرسلتها إليه. عانيت كثيرًا حتى تصل إليه. وثقت ببلقيس وأخبرتني أنها أعطته إياها يدًا بيد. تخيلت ما الذي يفعله حينها؟ يمسك بالرسالة ويقرأ ما خطته أناملي؟ يقرأ قربي فيها وبعدي عنه للأبد؟ أتخيل المشهد في عقلي مرات ومرات. النساء حولي في كل مكان،

وأنا لا أرى أمامي سوى مشهد واحد، أرى إبراهيم وهو ممسك برسالتي ينظر إليها مليا، ثم يطويها. صوت الموسيقى يتسلل خلسة إلى أذنيه، لكنه لم يعد يسمع. أصبح باردًا يحدق في الظلام الذي اكتسح عالمه في لحظة ما. يعيد فتح الورقة، ويتأمل الكلمات المبعثرة بتناسق تام كفريق كرة قدم يلعب بخطة محكمة. ينتقل ببصره إلى أسفل الورقة، عله يجد شيئًا ينفي ما قرأه ولكن دون جدوى. كل ما اخترقت عيناه هو بضع خطوط متشابكة بتناسق عجيب اعتدت أن أذيل بها صفحاتي لأميزها عن باقي الرسائل، لاسيما إذا كان هو القارئ.

يعيد النظر والترتيب والتحليل، ولكنه يصل إلى النتيجة ذاتها في كل مرة. بدأت الموسيقى تعلو، وبدأت كراته الدموية تبرد وتثلج كلما تذكر مصدر تلك الموسيقى. لطالما تمنى أن يرقص معي على تلك الأنغام، يتنقل ببراعة بين درجات السلم الموسيقي، يتلمس الألحان والنغمات، ثم يهمس لي بحب. ولكن أنى له ذلك وقد تعالت أصوات الموسيقى لتزعج كيانه المحصور.

لم تبدأ الحفلة الراقصة بعد؛ ما زال بإمكانه فتح صفحات ذاكرته والقراءة بل والتأمل فيها قليلًا لعله يشفي بتلك الصور والمواقف قلبه الذي أدماه صوت الموسيقى المنبعث من الحجرة الخاصة بالحفلة الراقصة. تريث قليلًا قبل أن يفتح تلك الصفحات، ثم أطلق تنهيدة أخرت سيل الذكريات.

تلمس ملامحي بهدوء، لم ينسَ يومها كيف مددت يدي لتعانق يديه في سكينة

دون أن أرتجف أو أبتعد. قلت له يومها: أنت وطني. احتوى يديّ الصغيرتين تمامًا كما يحتوي تلك الورقة، لربما كان التوقيت أيضًا هو ذاته.

كل ما أريده هو حفلة راقصة تجمعنا. همست له بسعادة.

صوت الموسيقى يزداد اقترابًا منه، ويضيق الخناق أكثر. يتأمل الورقة بين يديه مجددًا، يتأمل تلك الأحرف التي رسمتها أناملي. الحفلة الراقصة بدأت، أو ربما انتهت قبل أن تبدأ.

يعلم تمامًا أن تلك الحفلة الراقصة هي كل أمنياتي، ويعلم أيضًا أنها أصبحت أمنية من نوع آخر أتشاركها مع غيره. اقتربت الأصوات أكثر، أنفاسه ضاقت أكثر، صرخات في داخله تعلو، وأخيرًا انتهت الحفلة الراقصة بداخله. وانتهت أيضًا الحفلة في الخارج.

دخلت منزلًا غريبًا يدعونه بيتي. كان هناك، يستقبلني بكل هدوء وسعادة. ينظر إليّ وكأنني أجمل ما في الكون. أمسك بيدي وأدخلني لغرفتي الجديدة. كانت فائقة الجمال، لمحت في زاويتها مكتبًا صغيرًا عليه بعض الأوراق ومصباح كالذي كنت أحلم أن أكتب نصوصي على ضوئه. المكان دافئ، الستائر الطويلة تمتد بجمال بجانب سريري، وهناك تسريحة حيث لمحت الكثير من العطور الثمينة باهظة الثمن.

تلفتُ يمنة ويسرة. كان واقفًا خلفي ينظر إليّ وشبح ابتسامة على وجهه. التفتُ ورأيتني في المرآة. لم أصدق ما رأيته، أنا حقًا فاتنة. قضيت وقتًا ليس بالقليل أتأمل نفسي دون أن أشعر. أنا حقًا جميلة!

استأذنت منه ومشيت بفستاني وكأني أميرة. خلعت فستاني الأبيض، مسحت تلك الألوان من على وجهي، وعدت لشخصي. الآن أشعر بأني وئام.

ظل ينتظرني في الخارج، لكني لم أعِره انتباهي. لبست بجامتي الزرقاء التي أحب، رفعت شعري للأعلى، لم أكلّف نفسي عناء أن أضع أحمر شفاه، إنه لا يعنيني.

فتحت حقيبتي، مددت يدي إلى قاعها وأمسكت بأكثر أشيائي اختباءً. إنه دفتري الذي تسللت ذات نهار لمكتب أبي وسرقته. تحسست الجلد الفاخر على ظهره، عانقته بحرارة. أنا سعيدة بزفافي، الآن يمكنني أن أخرج أوراقي، أنثرني هنا وهناك دون أن أخاف من عبد الرقيب. شعرت أن أوراقي وأقلامي هي فستان زفافي.

❊ ❊ ❊

قبل شهرين من زفافي

أنا وحيدة في المنزل، أو هكذا ظننت. تركت اللابتوب الخاص بي مفتوحًا وذهبت إلى المطبخ أبحث عن شيء يسد فراغ معدتي. لم آكل منذ أيام، ليس لدي رغبة في الأكل، ولا في الحياة. صرت نحيلة وضعيفة. هشاشتي الداخلية بدأت بالظهور على ملامح جسدي المثقل بصدمات الطفولة، بجرح الأبوين.

لم أشعر في تلك اللحظة سوى بصفعة تنهال عليّ، وكأنها نار تلفحني وثلج يبرد حرارة دموعي. بكيت وأنا أنظر إلى عيني أخي تشتعلان شررًا، وهو يمسك باللابتوب. وبحركة سريعة، التفت ليجد أقوى شيء تصل إليه يديه، يحطمه ويحطم ما تبقى مني. بقيت صامتة، جامدة، أحدق فيه، وأمطر بغزارة على غير عادتي.

هنا كانت أحلامي. كل ما عانيت لأخفيه من أيديهم. هنا حروفي المتجردة من زيفهم. هنا إبراهيم. تذكرت.. كنت أتحدث معه. نسيت أن أخبئه، كما نسيت أن أخبئني في سردابي.

انهال بأقوى الضربات على اللابتوب، وعليّ بآلاف الشتائم. أنا وصمة العار الوحيدة بالنسبة لهم. وحين أفرغ غضبه، التفت إليّ، لكنه تجاوزني. تجاوزني بهدوء، وذهب ليتصل بأبي ليخبره بما وجد.

لم أعد أخاف سياطهم. أنا أبكي تعاستي، أبكي ضعفي. خائفة من أن يُقذف بي إلى قاع الجحيم. إنني أتعفن خوفًا.

❊ ❊ ❊

يوم دماري

صوت رنة الـ فيس تايم تخترق قلبي. بعد ثلاث رنات فقط، يرد أبي بالتجهم والعنفوان نفسهما. مراد يُريه اللابتوب ويحكي له ما رآه. لم أستطع سماع ما قاله، كنت أغرق في ضجيج أفكاري، ولكن جملة واحدة اخترقت روحي:

جاءت لنا بالعار، يجب قتلها، وقتل ابن الحرام هذا الذي أغواها.

ركضت مسرعة لأجد أول سكين صادفتني، وذهبت لأقف أمام مراد وأبي الذي كان على الهاتف. وضعتها على معصمي:

اقتلوني، لا بأس، لكن إبراهيم ليس له ذنب.

وقتها كنت أسمع صرخات أبي تخترق المنزل. صرخات غاضبة وناقمة عليَّ. رميت السكين من يدي وانهرت جالسة على الأرض. لم أشعر إلا والضربات تنهال على ظهري ورأسي. ضربني مراد بكل ما أوتي من قوة، أفرغها عليَّ مرة واحدة، وأبي عبر الهاتف يشاهد. كأنني في زاوية عميقة والنار تشتعل من حولي، يشاهدني وأنا مهانة، كسيرة، ضعيفة، خائفة.

فقدت الوعي بين يدي مراد. استيقظت وأنا في المجلس مجددًا، الأبواب موصدة من الخارج كالعادة، المكان مليء بالغبار. الستائر الخضراء المصنوعة من الدانتيل كانت أمامي. زحفت إليها، تمسكت بها، مسحت

الدماء من على جبيني وفمي. أنا الآن غارقة في الظلام، ظلام روحي وظلام المكان. لا أسمع شيئًا سوى نباح الكلاب في الخارج.

رأسي ثقيل جدًا. أنا متعبة، أشعر بالقشعريرة، لا شيء يدفئني. تكورت على نفسي في إحدى الزوايا، وبكيت. بكيت ضعفي، بكيت أحلامي، بكيت روحي التي غادرتني. أنا حقًا أتجمد خوفًا.

❊ ❊ ❊

الصباح الذي تلا زفافي

لم أستيقظ مبكرًا، بقيت مستلقية في السرير، أتأمل تفاصيل المكان. نهضت بخطوات بطيئة وخرجت إلى الصالة، ولم أجده. ذاك الذي يدعى مروان. تنفست الصعداء أخيرًا، أنا وحدي هنا. لماذا لا أبدأ بالكتابة؟ هناك الكثير لأكتب عنه منذ تلك الليلة التي أُخذ فيها كل شيء مني، حتى كتبي الجامعية.

وبينما كنت غارقة في أفكاري، سمعت طرقات قوية على الباب. فتحت فوجدتها، أم مروان. كانت تصرخ بشدة، دفعتني بقوة ودخلت دون أن تستأذن.

نظرت نظرة فاحصة إلى المكان وقالت: لماذا أنت نائمة حتى هذه الساعة؟ بعد عشر دقائق يجب أن تكوني في الأسفل، الضيوف ينتظرونك. وقبل أن تغادر التفتت نحوي بازدراء وقالت: وارتدي شيئًا ملائمًا.

كانت توجه سبابتها نحوي بازدراء، ثم غادرت وأغلقت الباب بقوة. لم أنطق حرفًا واحدًا. سكتُّ مجددًا في وقت كان يجب أن أعترض فيه. ربما أنا المخطئة، لم أعترض قط، لم أتحدث. كل المواقف تمر من طرقات قلبي بعد أن تدميها ولكني لا أحرك ساكنًا.

قررت أنني الآن سأتحدث، الآن سأعترض، لكنها لم تعطني فرصة، فقد ذهبت. عدت إلى سريري: كل هذا لا يعنيني، فليفعلوا ما شاءوا.

سجني

سأتحدث عن الأشهر التي عشتها حبيسة ذلك القبر الذي وضعني فيه مراد ووالدي من قبل.

خلال تلك الأشهر القاسية التي أمضيتها محبوسة داخل ذلك المكان المعتم، كانت نفسي تراودها أفكار مشؤومة وأحلام محطمة، وسط جدران الوحدة والعتمة التي تحيط بي. كانت شقوق النوافذ القليلة هي نافذتي الوحيدة إلى العالم الخارجي، حيث كنت أسترق النظر باحثة عن شيء يدفعني إلى الأمام، ومع كل نفس ينساب من رئتي، تنبت في عقلي تخيلات مخيفة وأحاسيس مرعبة أكثر.

كما كنت أعاني من تجاهل مرير، وحينما عاد أبي من رحلته، لم يجد سوى نقاط ضعفي ليستغلها في تشويهي وتحطيمي أكثر. كانت لحظاته العابرة بالعطف والرعاية قد ذهبت أدراج الرياح، وتبدّدت كالغيمة في سماء مظلمة. كانت حروف كلماته قاسية كالصخور، تسقط على قلبي الحزين مثل حمم بركان، تترك في طياتها جراحًا عميقة لا يمكن نسيانها.

في تلك الفترة، بدأت أرى نفسي كشبح متجول على الأرض، شخص مشوه بالألم والجراح، لا يعيش بل ينتظر الموت بفارغ الصبر. شخص مغمور بالألم. وكل ما أردته هو أن تأتي النهاية بسرعة لأفلت من عذاب الحياة وألمها. ومع كل يوم يمر، ازدادت رغبتي في النسيان، في الاندماج مع لحن

الموت الذي كان يناديني برقة وسحر.

ولكن، مع قدوم الزوار والأقارب، كنت مضطرة لتغيير وجهي، لأخفي العار والألم الذي يتخلل كل ألياف وجودي. كان عليّ تلبية طلباتهم بابتسامة مصطنعة، والتظاهر بالسعادة والراحة، رغم أن داخلي كان يتوسل لينجو ويتحرر. تراوحت أفكاري بين الأمل واليأس، ولكن في داخلي كانت تتزايد الرغبة في التحدي والمقاومة، في الخروج من دوامة اليأس والانكسار، والوقوف بكل فخر وصلابة أمام ما يواجهني.

لم يرهقني حديثهم بالسوء عني، ولم تُرهقني عزلتي وسط الجميع، لم يُرهقني شيء كما فعلت أفكاري.

❊ ❊ ❊

اللاإنسانية

وأثناء غرقي في بحر حزني، وصلتني عبارات من محادثة مكتومة بين والدي وأخي. كانا يتحدثان عن إبراهيم كما لو أنهما يتحدثان عن شيء مألوف لهما. كانا يعرفان كل شيء عنه، كل تفصيل صغير في حياته، وكل جرح ينزف في روحه.

تخيّلت اللحظة التي حطّما فيها إبراهيم، تخيّلت كيف شوها ملامحه البريئة، كما شوّها روحي بقسوة وبلا رحمة. كانت ألفاظهما كالسياط الجارحة، تطبع ألمها في كل خلية من جسدي، وتجبرني على الاستسلام للألم الذي ينبعث من كلماتهم.

أيها الحبيب، ماذا فعلت لكي تستحق كل هذا؟

تساءلت في داخلي وأنا أستمع إلى تلك العبارات القاسية. كيف يمكن لوالدي أن يتحدث بهذا البرود عن شخص عرفته جيدًا؟ كيف يمكن لأخي ألا يشعر بالذنب بعد كل ما فعله؟

تداخلت الأفكار في رأسي، وتسارعت النبضات في قلبي. تلك المحادثة عصفت بروحي، وظلت الأسئلة تدور في عقلي دون توقف: لماذا سمحت لنفسي بالاقتراب منه؟ لماذا لم أبتعد عنه كما طلب مني عقلي مرارًا وتكرارًا؟ كيف سمحت لهما إنسانيتهما أن يضرباه بوحشية ويزجا به في السجن؟

أي قسوة حلت على قلب أبي؟ كيف حكم على حبنا العذري بهذه القسوة؟ لم يكن إبراهيم يومًا ما مصطنعًا؛ لقد كان حقيقيًا أكثر من اللازم. كان يحلم معي ببيت وعائلة، كان يبني بيتنا بحب كما كان يبني قلبي ليعيش من جديد، ليشعر من جديد، بعد كل ما عانيته.

كيف أدخلاه السجن؟ ماذا فعلا بك يا إبراهيم؟

كان هذا كل ما يشغل تفكيري في تلك اللحظة. أريد أن أذهب إليه، أن أسمعه، ولكن كيف أصل إليه؟

❊ ❊ ❊

هروبي الثاني

في اليوم الذي أخبرني فيه مراد أن مروان وعائلته سيأتون لخطبتي. فتحوا لي الزنزانة أخيرًا وتركوا لي الحرية كي أجهز نفسي لاستقبالهم. كانت تلك الأسئلة تدور في دوامة من الحيرة واليأس في عقلي: كيف أدخلا إبراهيم إلى السجن؟ ماذا فعلا بك، يا حبيبي؟

أشعر بالرغبة الشديدة في الذهاب إليه، في سماع صوته وتبادل الحديث معه، ولكن كيف يمكنني الوصول إليه؟ كانت تلك التساؤلات تجتاحني مثل أمواج البحر الهائجة، تتراوح بين اليأس المطلق والأمل الخافت في العثور على طريق للقائه، لأسمع منه بنفسه ما جرى وكيف تم انتهاك حقوقه بلا رحمة أو شفقة.

لم أعد أكترث لهم. استجمعت شجاعتي أخيرًا. انتهزت فرصة لم يكن أبي في المنزل، خرجت مسرعة أركض وأسابق أنفاسي. وفي منتصف هروبي، تذكرت أني لا أعرف أين هو. تغيرت وجهتي وذهبت إلى منزله. استجمعت كل طاقتي في الحديث وطرقت الباب لتفتح لي أمه باستغراب.

من أنتِ؟

وئام، أظن أنك تعرفينني، أخبرني إبراهيم أنه حدثك عني.

تساقطت دموعها في تلك اللحظة، صرخت في وجهي:

اذهبي إلى حال سبيلك، يكفي ما فعلتموه بابني. حسبي الله ونعم الوكيل!

وأغلقت الباب في وجهي.

جلست على قارعة الطريق، تسيل دموعي بلا هوادة. أبكي حبي، أبكي إبراهيم. طرقت الباب مجددًا، طرقته مرات عديدة دون جدوى، حتى سمعت صوتًا خافتًا يناديني من نافذة صغيرة بجانب باب المنزل. كانت نورا، أخته. ذهبت بسرعة ووقفت أمامها بانكسار.

لو سمحتِ، أخبريني أين هو؟ قلتها ممزوجة ببكائي ونحيبي المتواصل.

قالت لي وأثر الحزن المرير على وجهها: أتى والدك إلى هنا ومعه الشرطة. أخذوا إبراهيم وهو بملابس البيت. جروه أمام أعيننا وأهانوه. هو في السجن الآن، سيُطلَق سراحه بعد أسبوع. لكنه أخبرني أن أجد فرصة وأخبرك أنه ما زال يحبك وسيحبك حتى يفنى.

ثم سمعت صوتًا يناديها، فهرعت مسرعة وأغلقت النافذة، تاركة لي جزءًا من النص مفقود. تركتني أعاني أكثر بعد ما سمعت ما قالته. لم أشعر بشيء سوى الندم، لأنني سمحت له بالاقتراب مني. لم تعد نار أبي تحرقني أنا فقط، بل تمتد لتحرق كل من يقترب مني، وكل من يحاول انتشالي من بئر معاناتي.

عدت إلى المنزل وقد عرفوا بخروجي. لم أكترث لتلك الضربات التي تنهال

علي. لم أشعر بأي شيء سوى أنني أفكر في إبراهيم. عادت السكينة لمكانها، وعلى الرغم من الضربات القاسية التي هطلت عليَّ، إلا أنني لم أهتم. كانت كل أفكاري تتجلى حوله. ارتبكت خطواتي بين أروقة المنزل، وكأنني في عالمٍ موازٍ بين الواقع والخيال، حيث كانت كل الأصوات تختلط في ضجيج لا يفهمه سوى قلبي المنكسر.

رغم أن الجروح ما زالت تؤلمني، والألم يعتصرني، لكن كل ما كنت أشعر به هو حنينٌ غامرٌ. لم أبالِ بالأصوات حولي ولا بالنظرات العابرة المليئة بالشفقة. كل ما يهمني كان إبراهيم.

❊ ❊ ❊

منزلي

في رحاب منزلي، يتسلل شبحٌ من السعادة ليملأ حياتي بالبهجة والراحة. هنا، أجد السكينة والاطمئنان. لا أحد يتدخل في شؤوني. في منزلي أجد مساحة لتفريغ مشاعري وإعادة لم شتات نفسي. هنا لا يعيق طريقي أو يؤثر على قراراتي أحد. أمتلك أوراقي وهاتفي وجهازي الخاص، وباستطاعتي الآن أن أكتب في أي وقت.

عندما يعود مروان في السابعة، يُغلق بابه ويدفنني داخل صفحات أوراقي، ويخرج امرأةً أخرى تتحدث معه وتشاركه أوقاته. لكنني لا أبالي، فأنا لا أستطيع أن أحبه. هو يشبه والدي، غير أننا لا نتواصل، ولا يحمل في يده سوطًا يجرحني أو كلمات قاسية تعترض طريقي.

يخونني كل يوم. يتحدث مع نساء غيري، هاتفه يعج بالنساء، بأصواتهن وصورهن، ولكني لا أكترث. أنا هنا سعيدة، ربما هذا الشيء يزيد من سعادتي؛ فهو لا يريدني ولا يهتم بي. لا يطلب مني شيئًا، لا يطلب مني أن أكون زوجة حقيقية. كل ما يملكه مني هو أن أحضر له طعامه وملابسه. وفي مجالس القات يفتخر بكون زوجته ابنة الشيخ عبد الرقيب.

على الرغم من أن صدمة الخيانة تخنقني كل يوم، وعلى الرغم من أن زوجي يتسلَّى بهواتفه الذكية بحثًا عن التسلية مع نساءٍ غيري، إلا أنني لا أجد في قلبي سوى الهدوء.

أنا هنا، في أحضان منزلي، حيث السلام والهدوء يسودان، بعيدًا عن صخب العالم الخارجي. لا أكترث لحالته الفوضوية، ولا لحياته الرقمية المليئة بالمغامرات، فأنا أجد سعادتي بين جدران منزلي الواسعة.

ربما يبدو غريبًا أن تجد السعادة في وجود شريك لا يحترمك، لكن بالنسبة لي، هذا الغياب المؤلم هو نعمة. فهو لا يطلب مني سوى القليل، وهو يتجنبني كما أفعل أنا، ويتوارى في عالمه الافتراضي المليء بالإثارة والمغامرات السرية.

في حين يتنقل في عالمه، أنا هنا، محصورة في عالمي، ملتزمة بمسؤولياتي اليومية في المنزل. أحضر له طعامه وملابسه، وأكمل حياتي كما لو كنت في جزيرة منعزلة في بحر السكينة، بعيدًا عن رياح الحياة الزوجية العاصفة.

لكنني لم أخنه قط. لقد ربطت على قلبي ولم يغادرني إبراهيم، وضعته في مكان مغمور داخلي. إنه حاضر في مخيلتي، ولكنني قررت ألا أقترب منه ثانية. لا أقوى على جرحه مرة أخرى، ولو كانت كل السبل متاحة أمامي. لقد أبرمت عقدًا صامتًا مع قلبي، وأبقيت حبي مخبأ فيه، وفي عقلي، تطاردني ذكرياته، لكنني قررت عدم الاقتراب مجددًا؛ لا أستطيع تكرار الجرح مرة أخرى، لا أجد في نفسي القوة لمواجهته مرة أخرى، وهو ما دفعني إلى اتخاذ هذا القرار الصعب.

أدركت أن هناك أشياء لا يمكن أن تصل لها يدي، وأن القلب قد يكون أحيانًا أعمى أمام المنطق، ويتمسك بألم الذكريات رغم مرارتها.

لا زلت أتذكر الليلة التي سبقت كل آلامنا، حين تحدثت إليه، أرسلت له رسالة مقتضبة. كنت مليئة بالحماسة فقد قُبِلت ككاتبة محتوى أدبي تاريخي في إحدى الصحف الإلكترونية. كنت أحلق سعادةً وأرتمي بين أحضان الفرح والابتسامات اللامتناهية.

عندها أتت رسالته التي انتظرتها. كتب لي دون مقدمات، دون حتى أن يهنئني: وئام، لقد وقعت في حبك. أنا حقًا أحبك.

اتسعت عيناي دهشة، وخفق قلبي بشدة وارتعشت أطرافي. رغم أني كنت أتمنى أن أسمعها منه، إلا أنني خفت وارتبكت. لم أجب بشيء، فقط قرأت جملته مئات المرات. نحن نتحدث منذ أشهر، كنا روحًا تسكن في جسدين، كان أقرب إليّ من هوائي، كنت أعرف بما يشعر وكان يفهمني. لكنه يقولها للمرة الأولى مما جعلني أبكي. أمطرت دفعة واحدة دون أن أشعر، وارتعدت خوفًا. أدركت أنني مشوهة عاطفيًا. أخاف من الفرح وأَتَلذّذ بأوجاعي، أشك حتى في اللحظات السعيدة. أنا حقًا أشعر بالبرد والخوف.

هل حقًا وقعت في الحب؟

أنا لم أشعر به من قبل. كيف أحب رجلًا ربما في أعماقه يشبه والدي، ولكنه مختلف، إنه يراعيني ويشجعني. إنه حقًا يحبني كما لم يفعل أبي.

وجدت نفسي دون تفكير أكتب له:

هذه المدينة مالحة، تفسد أحلام النائمين، لا ترشد التائهين. المدن

تقتل أبرياء الأحلام كلما غصوا في ذكرياتهم. أنا مدينة لا تعرف الحب، أخاف أن أحرقك، فروحي محروقة.

وصلني رده سريعًا:

لا أهتم إن كنت سأحترق معك. لا تهمني المدن، سأغادرها معك، سأترك كل شيء خلفي فقط لأبقى معك. فقط قولي لي أنك...

ترددت هذه الكلمات في عقلي مرارًا، تعبيرًا عن الاستعداد للخوض في المجهول مع الشخص المحبوب، والتضحية بكل شيء من أجل البقاء معه. هذه الجملة التي كتبها إبراهيم كانت أشبه بقنبلة موقوتة. لقد اجتاحتني كما لم تفعل كل الكلمات من قبل. هو حقًا مستعد لترك كل شيء ليعيش احتراقي. لكني بركان ينفجر كل يوم، فكيف له أن يحبني؟

فقط انتزعني من ذاكرتك. لا أحد يستطيع أن يحبني.

كانت رسائلي قاسية، كنت أريده أن يبتعد، كان شعور الخوف يجتاحني وقتها. أنا حقًا أحبه ومن أجل هذا الحب سأغادره وأغادرني.

أنتزعك؟ لقد كنت أعرف منذ اللحظة الأولى التي رأيتك فيها بأنني سأحتاج إلى معجزة لنزعك من داخلي.

وكيف نصنع المعجزات؟

هل حقًا تفضلين الابتعاد؟ لا تخافي يا وئام، سأبقى دومًا إلى جانبك.

لقد كنا رائعين جدًا، لكن القصة لا تتسع لبطلين.

حتى لو جعلتِني هامشًا في قصتك، لا تغادريني أرجوك.

وهل ينفع الرجاء؟

لن أخذلك، لن أجرحك، فقط كوني بجانبي.

المجروح من عائلته لا يشفى.

بل يشفى يا وئام، صدقيني، يشفى.

رغم أنني غاضبة طوال الوقت وقوية ومتمردة، إلا أن الأمر ليس بإمكاني تخطيه أو الشفاء منه. أنا هشة جدًا حين يتعلق الأمر بالآباء. هل ستكون أبًا جيدًا لابنتنا؟ لا أريد أن أنجب الفتيات، أخاف أن تكون رجلًا يخفي في هويته ذكرًا.

أخذت منه جملتي الأخيرة بضع ساعات كي يرد بكلمات ناعمة كالحرير، خفيفة كزخات المطر في يوم مشمس، دافئة كنار في ليل الصحاري:

أنا ذكر أحب فتاة حزينة. أحببت الحزن في عينيك، والفرح الذي يغمرك حين تكتبين. أنا أحب الأطفال، أحب الفتيات الصغيرات، ستكون ابنتنا جميلة مثلك، ورائحتها عذبة كعذوبتك يا وئام.

أرسلت له دون أن أتردد لحظتها:

أريد مقابلتك.

متى؟

غدًا.

لكننا لم نلتقِ. ولم أخبره بشيء. انتهى كل شيء قبل أن يبدأ.

لو أني أخبرته كم أحبه، ليتني قتلت صمتي وخوفي وأخبرته. لم أقلها له بل كتبتها على ورقة مهترئة بعد أن دمره حبه لي، وقربي منه. رسالة مبللة بالدموع أرسلتها مع بلقيس في يوم زفافي.

❊ ❊ ❊

مراد

علاقتي بمراد كانت مزيجًا من التناقضات والغموض، يتجاور فيها الحب مع الارتباك، ويتلاطم الاقتراب مع الانفصال. حاولت فهم غموض شخصية مراد، لكني وجدت نفسي محاصرة في شباك الألغاز والأحلام المرهقة.

مراد يمثل لوحة فنية معقدة، فيها الجمال والغموض، البساطة والعمق، الحضور والغياب. كنت أجد نفسي واقفة أمام تحدٍ كبير في محاولة لفك طلاسم شخصية أخي، واكتشاف ما يختبئ وراء الستارة السوداء لحياته وأفكاره.

كانت علاقتي بمراد معقدة ومشحونة بالتناقضات. كان يدًا ممتدة لوالدي، يديرها كما يشاء. كنا قطعتين في خطته الاستراتيجية، حيث استخدمنا في هجومه أو دفاعه عن مملكته الصغيرة في عقله. عندما يتباهى بنا كان يستخدمنا دليلًا على نجاحه، وكان يدافع بشراسة عنا لحماية ما يعتبره مقدسًا في عالمه الصغير. كنا درعين يلوِّح بهما في وجه العدو، فنكون الضحية الأولى عند الهجوم. وقد اعتمد على قطع كثيرة في سبيل حمايته، ولكن دون أن يكون هناك أية حماية لنا.

مع مرور الوقت، بدأت أشعر بالغربة والانفصال عن هذه العلاقة الأخوية مع مراد. لم يعد يعني لي مثلما كان في السابق. لم نكن مقربين أبدًا، ولكنني

رغم ذلك كنت أشــعر بالانتماء لأخي، أشــعر به كما لم يفعل أحد. نحن وجهان لعملة واحدة، نحن ضــحايا عبد الرقيب وعنفوانه. نحن لا نمتلك حياة خارج أســواره، هو من كان يقرر عنا كل شــيء: أوقات نومنا، وماذا نأكل. إنه يقرر حتى بما يجب أن نفكر فيه. تخصــصــاتنا الجامعية هو من يختارها، وملابسـنا. نحن لا نملك شـيئًا، فقط نملك حزنًا عميقًا يلتهمنا من الداخل.

يبدو مراد هادئًا مثل مياه بحيرة ســاكنة، لكن أعماقه تعج بحياة مختلفة. هو ليس ســيئًا كما يبدو، هو فقط نتاج عبد الرقيب وتســلطه. ذات يوم وجدته يبكي وحيدًا في إحدى شــرف منزلنا حيث كنت ألجأ إليها لأكتب؛ فأبي لا يأتي هناك أبدًا. وجدته منزويًا على نفســه يبكي بحرقة. مراد، أخي القوي، غير المبالي بشيء، كان متكئًا على أوجاعه والحياة تتساقط من عينيه.

حين شعر بوجودي خلفه، نهض مسرعًا ورسم علامة امتعاض على فمه. لم يتحدث، لم يخرج حتى شــبح حرف من فمه، تجاوزني وغادرني. في اليوم التالي، أتت بلقيس لتخبرني أن أبي صفعه أمام الجميع. الجميع يتحدث عما حدث، أنا وأمي لا نعرف شيئًا.

أخبرتني أن أبي أعطى السيارة لمراد ليقل صـديقه إلى المنزل، وأثناء عودته اصــطدم بســيارة أخرى. لم يتأذ مراد ولم يتأذ الرجل الآخر، لكن أبي لم يتوقف عن لومه أمام الجميع. وحين تحدث ليدافع عن نفسـه، تلقى صـفعة أودت بكبريائه. شعرت بالغبطة وبالحزن؛ مراد لا يستحق كل هذا.

أمي بكت في صمت، غادرت بهدوء لتنزوي في غرفتها، بينما استمرت بلقيس بالحديث دون أن ألتفت إليها. كانت تلك الدقائق ثقيلة على قلبي وعلى قلب مراد أيضًا.

❊ ❊ ❊

شوق

على الرغم من الحرية النسبية التي حزتها بعد زواجي إلا أنني كنت أعيش في عالم مظلم. وجدت نفسي محاطة بالصخب والضجيج في منزلي الجديد، لكن الصمت الداخلي كان أقوى بكثير. كلما مر الوقت، تزايد شوقي لإبراهيم، وكنت أعرف أن الظروف تقف بيننا كحاجز غير قابل للتغيير.

كانت الليالي تمضي وأنا منغمسة في تفاصيل الحياة الزوجية وفي واجباتي كزوجة، لكن في كل لحظة، كنت أشعر بالشوق العميق إلى الشخص الذي لا يزال يسكن قلبي.

كنت أجلس وحدي في الغرفة الصغيرة، أحتضن وسادتي بقوة محاولةً كبح تلك الرغبة الملتهبة في رؤيته أو محادثته مرة أخرى. كنت أستعيد كل لحظة قضيتها معه، كلماته الدافئة، وضحكته الساحرة التي كانت تضيء عالمي المظلم.

وسط هذا الشوق العميق، كنت أشعر بالعجز واليأس أحيانًا، ولكني لم أفقد الأمل في اللقاء مرة أخرى، ولو للحظة واحدة فقط. كنت أُصلي في صمت، أتوسل إلى الله أن يعيد إليّ الشخص الذي أسر قلبي وبات يسكن في أعماقي. في تلك اللحظات، كنت أشعر بأني أعيش في عالم موازٍ، عالم يمتلئ بالواقع القاسي والأحلام الجميلة المنسية.

ملابس الليل المثيرة

مروان زوجي هو أحد الأسئلة المبهمة. كانت حياتي معه تدور في قوس من اللامبالاة. يقضي لياليه متصفحًا شاشة هاتفه المليئة بصور الفتيات المثيرات اللواتي ينتظرن الليل حتى يبدأن قصة من نوع آخر. من خلف الشاشات كانت الفواحش تتسرب، فيما تدور داخلي صراعات متشابكة وأنا متكورة على ذاتي كل مساء، خائفة من أن يأتي ليطلب ما لا يمكنني منحه.

أجهل المعارك التي يخوضها في النهار، لكنني أعلم معاركه الليلية. حين تتحول الليالي إلى ساحة للصراعات الداخلية، ويتحول الهدوء الليلي إلى موطن للقلق والخوف، يبدأ الإنسان بالتساؤل عن طبيعة الحياة التي يعيشها، وعن طبيعة الشريك الذي يشاركه الرحلة.

عانقني مرة واحدة منذ زواجنا. قبل سفره لعمل ما، وقفت بجانب بقية العائلة نودعه. ودّعهم ببرود يكفي لتجميد قارات. في لحظة وداع محطمة، واجهت حقيقة مؤلمة، حيث ودّعت مرتفعات الأمل برفقته. مروان، الذي لم يعتد على لغة العواطف والمشاعر الدافئة، كان يودع ببرود تام. كان ذلك الوداع مثل لمسة باردة تجاه عالمي المليء بالحنان والأمل. تركته ينطلق في رحلته دون لمسة تدفئ قلبي المحطم، تاركًا خلفه مشاعر من الإحباط والفقدان تتجاوز الكلمات.

منزلي كان يكتظ بالأفكار. كنت أشخبط هنا وهناك، وأوراقي كحزمة ورود

مبعثرة. كنت أَشْبِه نفسي هنا، لا آخذ وقتًا في تحضير الطعام؛ فمروان يقضي معظم يومه في الخارج، حيث يدير أعماله، أو يذهب ليشرف على العمل. في الصباح، يكون مكبلًا بالصمت، ثم يفترش المجلس ومقيل القات وكأنه طائرته الخاصة، يسافر بعيدًا خلف شاشة الهاتف. يعود لي في المساء، يجدني أرتدي البيجامة ذاتها التي رآها عليّ البارحة.

ذاتَ يومٍ عاد مختلفًا. رمى في وجهي كيسًا ممتلئًا بملابس ليلية مثيرة. صُعِقتُ عندما رأيتها. لا أظنه كان يتوقع مني ارتداءها. تقدمت إليه بقلبٍ مثقل، ووضعت الكيس المحمّل بالوجع أمامه.

هل تعتقد أني قادرة على ارتداء هذا؟

لمَ لا؟ لماذا تزوجنا إذن! قالها وهو لا يزال محدقًا في شاشة الهاتف. لم يكلف نفسه عناء النظر في وجهي، أو حتى رجائي.

على أي أساس أسميت هذا زواجًا؟

إذًا ما هو؟ أخبريني؟

قالها ووضع هاتفه جانبًا ونظر مباشرة إلى عينيّ. كان فاتنًا جدًا، يملك عينين ساحرتين وأنفًا يتوسط وجهه باستقامة مثالية. يبرع في تصفيف شعره وكأنه أحد نجوم هوليوود. لقد كان وسيمًا بشكل أكثر من اللازم.

الزواج يبنى على التوافق الفكري، فليس من العدل أن أحدثك عن الموسيقى وشكسبير وجورج برنارد شو، وتسألني ماذا سنطبخ غدًا؟

حسنًا، يا مثقفتي الصغيرة، هلا ارتديتِ ما أحضرت ليكتمل زواجنا الخاطئ هذا؟

تزوجتني فقط كي تخبئ فضائحك، كي تجد مساحة أكبر لتتحدث مع عشيقاتك بأريحية.

قلتها والدموع توشك على الانفجار. شهور من اللامبالاة والصمت قررت إنهاءها أخيرًا، ثم أضفت:

دعنا ننهي هذا.

ماذا تقصدين؟ عذريتك؟ هل تريدين إنهاءها حقًا الليلة!

لا، فليذهب كل منا في حال سبيله.

هممت بالمغادرة، ثم لوحت له من بعيد:

لترتدي لك فتيات الليل هذه الأشياء.

لم أكمل جملتي حتى ثار كالبركان ناشرًا حممه في كل مكان، تحولت عيناه إلى اللون الأحمر. أخافني. ها أنا أشعر بالخوف مجددًا. ارتعدت كل أطرافي، كنت قد اعتدت أسواط أبي ومراد، لكن تلك المرة مختلفة. إنها المرة الأولى التي يثور فيها. تقدم نحوي بغضب، شد شعري وجذبني بعنف، وضع قبلة ملطخة بالذل على فمي. إنه يقيدني، يحاول أخذ ما ليس له. أنا لست ملكه، لا يملكني أحد. لست أفعل شيئًا سوى الاعتياد على ما يحدث.

❊ ❊ ❊

مرض والدي

ذاتَ يومٍ، أثقلتني الهموم حتى شعرتُ كأن الأقدار قد جمعت كل أوجاعها في لحظة واحدة. لم يكن ذلك اليوم كسائر الأيام، بل كان مظلمًا ومريرًا، يغمر فيه الحزن واليأس قلبي المثقل. في تلك اللحظات، كنت أكتب فصول روايتي الأولى التي أطمح أن يحمل غلافها اسمي الحقيقي، لا أن تكون مجرد أسطر ألقيها بين أيدي القراء باسمٍ مستعار.

سمعتُ طرقاتٍ خفيفة على باب شقتي، فتجاهلتها كأنها لا تعنيني، لكنها ما لبثت أن ازدادت قوة. فتحت الباب، فإذا بأمي تقف منكسرة أمامي. ما إن وقع بصري عليها حتى قفزت نحوي واحتضنتني بشدة، ودموعها تتسابق على كتفي. حاولتُ تهدئتها وسألتها عمّا يحدث، لكن حشرجتها كانت أبلغ من أي كلام. لم أستطع أن أبادِلها العناق؛ فقد أبت ذراعاي أن تلتفّا حولها، إذ كانت مشاعري متبلدة تجاهها.

أمسكت بيدها وأدخلتها. جلست على طرف أريكة بجانب النافذة. استغرق الأمر منها خمسًا وعشرين دقيقة حتى توقفت عن البكاء. خمسٌ وعشرون دقيقة تعادل خمسًا وعشرين سنة قضيتها أبكي في زوايا منزلنا الكبير دون أن يواسيني أحد، دون أن تفتح والدتي ذراعيها لتطمئنني أو تُخفّف عني.

كل دقيقة مرّت كانت تعادل عامًا مضى من عمري، كنت أتوق فيه إلى نظرة حب واحدة منهم. كانت خمسًا وعشرون دقيقة كفيلة بأن يمرّ أمامي شريط

ذكرياتي المتخم بالخيبات.

بقيتُ ساكنة تمامًا، أحدّق فيها كجندي أنهكته الحروب حتى تبلّدت مشاعره، فلم تعد تؤثّر فيه صرخات الأطفال ولا أنين النساء الخائفات من أصوات القنابل.

استجمعت أنفاسها أخيرًا، وقالت بهمسٍ يخالطه أنين:

أبوك يا وئام في العناية المشددة.

صُعقتُ لقولها. اتسعت عيناي وأذناي كأن حزني تلاشى فجأة، وحلّت محله صدمة لذيذة جعلت جسدي يقشعرّ انشراحًا.

مصاب بالتصلب اللويحي، وهو في مرحلة متقدمة. ظهرت الأعراض الشديدة ونقلناه للمستشفى بعد أن تشنجت عضلاته وتيبست.

كيف حدث هذا؟! سألت بقلق.

وقع أرضًا بعد نقاش حاد مع مراد ونقلناه إلى المستشفى وهناك اكتشفنا مرضه ونُقل إلى العناية المشددة.

وأين مراد الآن؟ استفسرت بقلق أكبر.

بعد أن نقل والدك إلى المستشفى، أعطاني مبلغًا من المال وذهب. هاتفه مغلق ولم أستطع الوصول إليه.

ولمَ أتيت إلى هنا؟ قلت بدهشة.

لا أعرف كيف أتصرف، حين أخبرني الطبيب أنه أصيب بالشلل النصفي وفقدان النطق لم أعرف إلى أين أذهب، قضيت الليلة كلها بجانبه. كان هو من يهتم بكل شيء، أنا لا أدري أين أذهب بدونه، ليس لي سواه في هذه الحياة، حتى أني فكرت بالذهاب إلى المنزل وسؤاله ماذا أفعل؟ لا أعلم ما يجب عليّ فعله، حتى إجراءات المستشفى لا أفهم فيها؛ فأنا لا أقرأ ولا أكتب.

هل تتوقعين مني المساعدة؟ سألتها بتردد.

إنه والدك يا وئام، كان قاسيًا عليك بعض الشيء ولكن...

صرخت مقاطعة:

بعض الشيء؟ أنا هنا أعاني كل ليلة من ظلمك وظلم أبي وظلم زوج لا يكترث. لقد قتلتم كل شيء بداخلي، لم أعد أشعر بشيء تجاهكم، أنتم لا تعنون لي شيئًا.

أبوك كان هدفه مصلحتك.

ما زلت تدافعين عنه بعد كل ما حدث!

ارتكبتُ الكثير من الأخطاء يا وئام.

كنت أحلم بالحب وبالعائلة معكم. هل طرقتِ باب غرفتي يومًا لتسألي عما أشعر به، أو كيف مر يومي؟ لا أحد منكم فرح عندما أخذت المركز الأول في كليتي، لم يشاركني أحد فرحة كتابتي لأولى

نصوصي الأدبية، لم تكوني هناك عندما مدحتني معلمتي وأنا في الصف الرابع على نظافتي وذكائي، لم أستيقظ يومًا من نومي قبل المدرسة ووجدتك تحضرين لنا الإفطار وتضحكين في وجهي وتقبلينني قبل أن أخرج من المنزل. حتى في يوم الآباء غبتِ أنت وأبي. وفي حفل تكريم الأوائل في المدرسة لم تكونا هناك لاحتضاني، بينما كان الآباء يغدقون القبلات والهدايا على أبنائهم.

وئام، هذا ليس وقت المحاسبة والذكريات المؤلمة، والدك في العناية المركزة.

متى سيأتي وقتي؟ هل خضنا مرة نقاشًا كأم وابنتها؟

تعرفين كيف هي حياتنا، لم نكن ننتبه لهذه التفاصيل يا وئام.

لكن كنتِ تستطيعين الجلوس لست ساعات في مجالس القات، وتجدين وقتًا لطلبات عبد الرقيب الكثيرة دون التفات إليّ، أنا ابنتك.

كانت ضروريات يومية، لنضمن لكم مكانة مرموقة في المجتمع يا ابنتي.

مكانة! كل ما كنت أحتاجه هو الحب، أن أُحِب وأُحَب. المكانة أستطيع أن أصنعها بنفسي يا أمي.

أنت الآن زوجة ابن الشيخ عبد اللطيف، أي واحدة تتمنى أن تكون

مكانك، وأنت هنا بفضل والدك.

قمت من مكاني وقد تكاثرت الدموع في عينيّ. أحسست بالاختناق. أتحدث لكن أمي لم تكن تشعر بالأسف تجاهي. صرخت:

أنا هنا لأنكم أجبرتموني على خوض تجربة مريرة لا أستحقها، ماذا تعرفين عني هنا؟ هل كلفتِ نفسك عناء زيارتي أو حتى الاتصال بي للاطمئنان عليّ؟ أنا هنا نكرة، أعيش مع جدراني الأربعة وزوج لا يلتفت إليّ، يخونني كل يوم مع عشرات النساء. هل تكترثين لحالي؟

واجبك أن تستميليه وتنسيه النساء الأخريات يا ابنتي.

هل نجحت أنت في ذلك؟

ماذا تقصدين؟

أنت كالجارية في منزل عبد الرقيب، لم يهتم بك يومًا، فقدتِ روحك يا أمي وفقدت ابنيك، وقضيتِ ثلاثين عامًا مع رجل لا يحبك.

بل يحبني، لم يحبني أحد كما فعل أبوك.

والدليل أنك كنت آخر اهتماماته، آخر سكن زوجية يزوره في أسبوعه، يتزوج الفتيات الصغيرات ليملأ قلبه بالسعادة، وأنت تديرين حياته كأُم، أنت لست أُمه، أنت زوجة ولك حقوق.

أي حقوق تتحدثين عنها! الزوجة ليس لها ملاذ سوى بيت زوجها.

شعرتُ بالأسى تجاهها. لم أكن أكرهها، بل كنت أكره ضعفها أمام جبروت أبي. لم تكن تدافع عن حقوقها، لأنها لم تعرفها أصلًا؛ فقد نشأت في أسرة وبيئة مجتمعية تفرض أدوارًا صارمة على النساء والرجال، وأي خروجٍ عنها يُوصم بالباطل.

أخذت أمي حقيبتها وغادرت الشقة مسرعة، وارتميت أنا في أحضان أريكتي الفاخرة وغرقت في الشوق لأيام لم أعشها، لضحكات عائلية لم تكن يومًا حقيقية، ولابتسامة من أب حنون، وشجار مفتعل مليء بالضحكات مع أخ قريب. اشتقت لوئام التي لم تولد يومًا.

❊ ❊ ❊

بعيداً، قريباً من الوطن

بعد أن غادرت أمي، ساد ليلٌ ثقيل على قلبي. لم أغلق الستائر، وبقيت قابعة في الظلام أفكر فيما يجب عليَّ فعله. وصلتني رسالة من رقم مجهول؛ كانت من مراد.

أختي العزيزة وئام، أعلم أن الوقت متأخر لأكتب لك. أكتب لك للمرة الأولى وربّما تكون الأخيرة. أودّ أن أعتذر عن بؤس هذا العالم، عن كل اللحظات التي كنتِ فيها وحيدة ولم أستطع مدّ يدِ المواساة. يا وئام، لقد فرض علينا المجتمع أن نعيش بطريقةٍ معيّنة، وكان والدي وسيطًا في نقل هذه العادات والتقاليد السخيفة إلى جيلنا. كنتُ أحسدكِ؛ فعلى الرغم من كل ما مررتِ به كنتِ تقفين صامدةً في وجه أبي. أما أنا، فالابتعاد عن المنزل كان يمنحني إحساس بالحرية. لكن هذه المرّة لم أغادر المنزل فحسب؛ غادرت الوطن بأكمله. لا أستطيع العيش في وطنٍ لا يحتويني. لذلك رحلت وأخذت معي أموال والدي. اعذريني يا وئام، هذا أقلّ ما أستحقه في رحلتي للبحث عن ذاتي. مع حبي، مراد.

وقفت مشدوهة. قرأت رسالته مرات. كيف اختار نفسه وتركنا وحدنا في تلك الظروف؟ أنا أيضًا تركت أمي وحيدة تعاني. في تلك اللحظة شعرت برغبة في التعبير عن شيء يعجز اللسان عنه؛ شعورٌ يمرّ عبرك لكنه لا يُرى ولا يُكتب،

ولا حتى يُشارك كنوع من التنفيس.

لم أفكر مرتين، هرولت مسرعة. أخذت في حقيبتي ما يمكنني حمله، لبست عباءتي وغادرت هذا المنزل. لم أكن أعلم أني أغادره إلى الأبد.

❊ ❊ ❊

حين تبدو ضعيفاً

خرجتُ مسرعةً، وأوقفت أولَ تاكسي وقعَت عليه عيناي. لم أكترث للقيود التي كانت مفروضة عليّ: ألا أنزل إلى الشارع بمفردي، أو حتى أن أتناول وجبة الغداء كإفطار، أو أن أسهر بعد منتصف الليل. رميتُ كلّ تلك القيود وراء ظهري. أنا الآن أختار نفسي؛ كلماتُ مراد أيقظت في قلبي الحماس. أعلم أنه أخطأ حين اختار نفسه. أوهمنا بالطاعة العمياء، وفي أول فرصة اختلس كل شيء ورحل بلا عودة.

من نافذةِ التاكسي حدّقتُ في الغيوم التي كانت تملأ السماء. كان الجوّ باردًا، فأخرجتُ المعطف من حقيبتي الصغيرة ولففتُه حولي. في تلك اللحظة تذكرتُ عبارة لجون ريثتيك: لن يفيدك المعطف عندما يأتيك البرد من الداخل. ترى أيّ عاصفةٍ في قلبه دعته لقولها؟

بقيتُ أفكّر وأتخيل كيف سيكون لقائي بوالدي: كيف سأراه عاجزًا، كسيرًا؟ لماذا لا أشعر بالحزن تجاهه؟ لو أن شخصًا غيره مكانه لذرفت الدمع لأجله حتى لو عرفته ليوم واحد. كيف سأخبره بما اقترفه مراد؟ وكيف سيكون وقع الخبر عليه وعلى أمي؟

توقف التاكسي أمام باب المستشفى، نزلتُ وأنا أحمل همومًا أثقلت كاهلي. شعرتُ بأنّي فتاةٌ صغيرةٌ بجسد امرأة كبيرة.

من الألم تنبت بذور الشفاء؛ تتساقطُ الدموعُ لتروي تربةَ القلب الجافة، فتنبُت الزهور في أرض اليأس، ويعود الأمل يركض في الأوردة كدمٍ نابضٍ بالحياة.

صعدتُ الدرج ببطءٍ، خطوةً بعد خطوةٍ، وقلبي ينبض بعنفٍ حاملاً عبئًا ثقيلاً. تنازعت داخلي مشاعر متضاربة: قلق ورجاء وحزن. تخيّلت والدي المريضَ محاطًا بأجهزة طبية، وقارنتها بصورته السابقةَ وهو قويٌّ ومتسلّط.

حين اقتربتُ من باب الغرفة شعرتُ بتردد وتوتر؛ لم أكن مستعدةً لرؤيته في تلك الحالة المنكسرة. توقفتُ أمام الباب وتنهدتُ بعمقٍ لأهدئ أعصابي. تلفتُّ في أرجاء الغرفة فوجدته مستلقيًا على السرير، وجهه ملامس وسادته حزينًا ومرهقًا. دخلتُ بهدوءٍ، وفي داخلي قلقٌ كبير لكنّي حافظتُ على سكوني الخارجي. كانت لحظاتٍ موجعةٍ؛ لم تظهر عليَّ مظاهرُ التأثر الشديد.

جلستُ بجانب سريره، ووجهي الذي يسكنه الحزن كان يعكس إرادةً وصمودًا. لم تنهمر الدموع من عينيّ؛ احتفظتُ بصلابتي بشكلٍ ملحوظ، بدوتُ واثقةً وثابتةً أمام هذا المشهد الصعب. أمسكتُ بيده برفقٍ وهمستُ بكلماتٍ تحمل بعضَ الأمل والتشجيع. بقيتُ ساكنةً أتأمله وهو غائبٌ عن الوعي؛ هل يتذكّرني أو يحلم بي؟ هل يتذكّر قسوته ويندم عليها؟

أنا لا أبكيه، لكني سأقفُ بجانبه بدافعٍ إنساني. جراحُه التي سببها لي لم تندمل بعد، وما زالت تهيمن على تفكيري كما يفعل الحزن بي دومًا.

وبينما كنتُ أحدّق في كل شيء ولا شيء، دخلتْ أمي إلى الغرفة. إنه موعدُ

الدواء. لم تكن تتركه في كل شؤونه فكيف ستتركه في أقسى أحواله، رغمَ أنه خذلها مرات كثيرة. فكّرتُ في قدرة الأمهات والزوجات على بثّ الأمان وهنّ خائفات، ومنح الحب وهنّ مخذولات ومحرومات منه. قلت في نفسي: من قال إن فاقد الشيء لا يعطيه!

لكن أمي منحت كل الحب لوالدي، والدي الذي لا يستحق، وحرمتني أنا ومراد منه.

دخلتْ والدتي الغرفة بخطى هادئة كأنها تمشي على رمل شاطئ في ليلة هادئة. هناك في زاوية الغرفة وجدَتني، أتأمل حزني وقهري بصمت. لم ألتفت لصوتها الدافئ الذي حاول أن يستثير عواطفي.

وئام؟

همست، بكلمات تتردد في الهواء مثل أوراق خريفية تتساقط ببطء. سألت وملامح الدهشة ترتسم على وجهها المضيء في الظلمة:

كيف جئتِ هنا؟

لم أجب، واصلت جلستي المستغرقة في التفكير، كأني قد دخلت عالمًا آخر، عالم من الألم والترقب. والدتي، في محاولة منها لفهم الغموض الذي يكتنفني، جلست بجواري، ولأول مرة وضعت يدها برفق على كتفي؛ أظنها تحاول تهدئة العاصفة الهائجة داخلي.

ما الذي يحدث هنا؟

تساءلت بصوت هامس، وكلماتها تنزلق من شفتيها بتعجب، وتعلوها ملامح القلق والاستغراب، تبحث عن إجابات في عيني ابنتها المتعبتين.

لم أجب؛ استمر صمتي ثقيلاً يخترق الهواء كصمت المحيط في ليلةٍ سكون. راقبتْني بعينين مليئتين بالتساؤلات، تائهةً بين التخمينات، بينما كنت أحتجز داخلي عواطفي المكبوتة كأمواجٍ متلاطمة في بحر الحزن والتحدّي.

ببطءٍ أومأتُ لها برأسي، في إشارةً صامتةً للانسحاب إلى مكانٍ أهدأ حيث يمكننا الحديث بحرية. لأول مرةٍ رأيتها بعين قلبي هكذا؛ كنتُ ناقمةً عليها لسنوات فلم أمنحها فرصةً للكلام. تبعتها بثقةٍ، وأجلتُ أمامها صورةَ ابنةٍ تحتاج إلى دعمٍ وتوجيه.

جلسنا في زاوية هادئة بكافيتيريا المستشفى، حيث يمكننا أن نتحدث بصراحة. جلست بجانبها أراقب ملامحها المثقلة بالتعب وأبحث عن بصيصِ أملٍ. كانت عيناها تعكسان الحنانَ والاستعدادَ للاستماعِ بكلِّ حبٍ وإخلاص. شرعتْ أمي تفتح قلبها وتتشارك معي أفكارها ومشاعرها، ألقت بعضَ الضوء على الأحداث التي تثقل كاهلها. بدت كصخرةٍ تواجه الأمواج؛ ثابتةً ومستعدةً لتقديم كل ما لديها لعائلتنا المهترئة.

ماضي الضحية والجلاد كان مقيتًا، لكن في هذه اللحظة الصعبة شعرتُ بشفقةٍ خاصةٍ تجاههما. لم أبتعد عنهما إلّا خلال ستة أشهرٍ مضت، لكني رأيتهما مختلفين كأرضٍ خضراءٍ أصابها جفاف. عندما رأيت والدي على فراش المرض انقشع الماضي المقيت، وعمّت الشفقة قلبي. شعرتُ بالحزن لما

يمران به من شدائد. لم أستطع تجاهل صورته المهلهلة على السرير. تمنيتُ أن أفعل شيئًا لمساعدتهما، لكني وجدتُ نفسي عاجزةً أمام ذكرياتي؛ تجاعيد الألم والأسى عكرت روحي، وذكريات مؤلمة تسللت إلى عقلي. كيف يمكنني أن أكون مصدر قوة ودعم لهما وأنا ضعيفة؟ تذكرت كل لحظة من العذاب الذي مررت به، وكيف أن والدتي ووالدي كانا سببًا في كل آلامي ومرارتي.

نظرت في عينيها، أدركتُ أن الكراهية التي ظننتها موجّهةً تجاه والدتي لم تكن ضدّها شخصيًّا، بل ضدّ الماضي المؤلم الذي عشناها معًا. في عينيها رأيت براءةً طفولةٍ ضائعةٍ وأثرَ تعبٍ خلّفته سنون العذاب.

أدركت أن والدتي لم تكن تريد سوى الخير لي، ولكن الظروف والأحداث القاسية جعلت العلاقة بيننا تتحول إلى صراع دائم بين الحب والكراهية، بين الرغبة في الانتقام والرغبة في التسامح والمصالحة.

لحظتها، شعرت بموجة من الشفقة تغمر قلبي. أدركت أن أمي كانت تعاني أيضًا، وأن الحياة قد وضعتها أمام تحديات كبيرة وصعوبات لم تكن تتخيلها. والدتي أيضًا كانت ضحية عادات مجتمعية، وتحملت معاناة مماثلة لما عشته أنا.

❊ ❊ ❊

أمي

كأن غمامة انقشعت لتريني جوهر أمي، وكأن مرض أبي كان ظرفًا ضروريًا لنعيد اكتشاف بعضنا في وقت لم تتح لنا الظروف العادية ذلك. في الوقت الذي كنت أتألم من جروح الحياة، كانت أمي تضمد جروحها هي الأخرى. الحنان والعطف اللذان بدأت أشعر بهما تجاهها كانا نابعين من فهم عميق للتحديات التي واجهتها، ومن احترام للقوة الداخلية التي ظلت تحافظ بها على كرامتها رغم كل شيء.

ربما ساعدني وضعي الجديد كامرأة متزوجة على هذا الفهم، وربما رأيت أنانيتي منعكسة في مرآة أخي مراد فكرهتها. تحدثت مع أمي في ذلك اليوم، فتحنا قلبينا وتبادلنا عبارات الدعم والتضامن الصامتة. أدركت أنني لست وحدي في معركتي، وأننا معًا سنتغلب على كل الصعوبات التي تعترض طريقنا. حدثتني عن طفولتها المتوارية تحت مسمى العار ، وعن النساء اللواتي يعشن أسرى العار طَوال حياتهن.

حدثتني عن سجنها في جلب الماء للمنزل ورعي البقر. كانت طفلة في العاشرة، حبيسة أملها بأن تقرأ جملة واحدة مكتوبة على قارورة ماء. فضولها تجاه العالم كان يزداد، فكانت تترك الحمار الذي يحمل الماء بعيدًا لتصغي خلسة لصفوف القراءة في المدرسة التي تبعد بضعة كيلومترات عن بيتها. تكابد وعورة الطريق، فقط لتسمع قصص الأنبياء والأبطال الذين صنعوا

الثورات. أخبرتني كم كانت معجبة بصمود الزبيري، وبقصائد المتنبي، وبروايات إحسان عبد القدوس المحرّمة التي كانت تسمعها مقروءة عبر راديو قديم خبأته في مكان بعيد حتى لا يكتشفه أحد.

حدثتني عن اليوم الذي تقدم فيه أبي لخطبتها وكيف طارت سعادة بعقد اللؤلؤ والفستان الأبيض. كانت حينها فتاة في الخامسة عشرة، تحلم بالمدينة وتفاصيلها المزدحمة بالمباني والناس والأسواق. تحلم بالحياة بين أصوات السيارات، تحلم بمنزل وعائلة وأن تكون سيدة قرارها.

حكت عن انبهارها بصنعاء القديمة وبحديقة منزلنا الكبيرة. أخبرتني أنها هي من غرست أشجارها وسقتها واعتنت بها وكأنها كل ما تملك. روت لي عن طفولتي وكم كنت شقية. قالت وهي تضحك: كنتِ مشاكسة جدًا يا وئام .

في تلك اللحظة تبدد الألم، وانقشع السواد الذي ظل يحيط بروحَينا سنوات طويلة.

قلت مبتسمة:

حدثيني عن طفولتي أكثر، أحب أن أراني بعينيك وبلسان قلبك.

كنتِ طفلة فائقة الجمال. تحدقين طويلًا في الأشياء، تعطينها وقتًا أكثر مما تستحقه في التأمل.

هل كنت أحب اللعب؟

كنت تلهين كثيرًا مع مراد، ورغم كثرة مشاكساتك، لكنك كنت

طفلة قريبة إلى القلب، ضحوكة، بشوشة، وكثيرة التساؤلات.

هذا يعني أني كنت ثرثارة.

كنتِ تحبين الاطلاع، تسألين عن كل شيء، وتحاولين الإلمام بكل التفاصيل.

كيف كانت علاقتي بأبي؟

كان يحبك وما زال يا وئام. أنا لا أبرر ما فعل، لكن والدك تغير كثيرًا، أصبح يخاف عليكما بعد أن كبرتما وازدادت أوضاع البلاد تدهورًا. الحرب حطمت كل الأشياء الجميلة يا وئام.

تحدثت أمي عن طفولتي وكأنني إحدى الأميرات. لم نملك صورًا لطفولتنا، فلم يكن والدي يهتم بمثل هذه التفاصيل. لكن أوان الصور لا يفوت. تذكرت هاتفي وقلت لنفسي: لِمَ لا ألتقط صورًا لطفلة في الخامسة والعشرين تتعرف على أمها لأول مرة؟

أخرجت الهاتف من جيبي وكأنني أخشى أن أكسر اللحظة. طلبت من أمي أن نلتقط صورة معًا، فابتسمت ابتسامة دافئة واقتربت لتجلس بجانبي. كانت لحظة مليئة بمشاعر متضاربة، امتزج فيها حنين إلى ماضٍ سعيد لم أعشه، مع أمل بمستقبل أجمل.

احتضنت أمي برفق وضغطت زر الكاميرا. أضاءت الشاشة بصورة تحمل كل معاني الحب والدفء والصلابة. وجهان عبّرا عن سنوات من الألم والمرارة،

لكنهما الآن يتجهان نحو النور، نحو مستقبل أكثر إشراقًا.

وضعت الهاتف جانبًا، نظرت في عينيها مرة أخرى، وفي تلك النظرة رأيت شجاعة وصبرًا وقوة لم أكن أعلم أنني ورثتها منها. أدركت أنني لست وحدي في هذه المعركة، وأنه بالرغم من كل الألم والمشاق، يمكننا أن نجد معًا طريقًا نحو السلام والسعادة.

حين جلسنا نتحدث ونتذكر، شعرت أنني بدأت أفهم أمي وأفهم نفسي على نحو أعمق. أدركت أن الحياة ليست سلسلة من الأوجاع فقط، بل هي أيضًا لحظات من الفرح والحب، تلك اللحظات التي تمنحنا القوة لنصمد ونتقدم.

في نهاية حديثنا احتضنتها، وأخبرتها أنني أحبها وأقدّر كل ما فعلته لأجلي. شعرت وكأننا فتحنا بابًا جديدًا في علاقتنا، بابًا مليئًا بالأمل والإمكانات. وعندما غادرت الكافتيريا، كان شعوري أنني أبدأ فصلًا جديدًا من حياتي؛ فصلًا أستطيع فيه أن أواجه الماضي بشجاعة، وأبني مستقبلًا أفضل.

❊ ❊ ❊

طلاقي

بعد شهرٍ من العلاج خرج أبي من المستشفى، فتناوبتُ أنا وأمي على رعايته في البيت. أصبح عاجزًا عن الحركة؛ غير قادرٍ على الذهاب إلى الحمام وحده، ولا حتى على مضغ الطعام. نحن من نطعمه كطفل. لم يعد يتكلم، فقط يحملق بي بعينين غائرتين، التف السواد حولهما كليل في بداية الشهر.

نقلناه إلى المنزل لأننا لا نملك تكاليف المستشفى، ولأننا لا نعرف أحدًا يساعدنا. مروان لم يتصل منذ شهر، منذ أن تركتُ المنزل وغادرته دون أن أخبره. هو يعلم بمرض والدي لكنه لم يُعرْ الأمر أدنى اهتمام. يريد امرأة تشاركه السرير فقط، تُقبله بشغف حين يعود وتلبي طلباته. كرهته وكرهت نفسي.

عند مغادرتنا للمستشفى وصلتني رسالة منه كانت مثل هدية في عيد. لم أكن أرغب في شيء سوى أن أسمع منه كلمة واحدة. وصلت إلى المنزل وفتحت الرسالة. انفرجت أساريري؛ أنا الآن حرة. كانت ورقة طلاقي، بل ورقة حياتي الرابحة.

لم أحزن، لم تسقط دمعة واحدة. كنت أفكّر فقط في ورقةٍ تنهي كل شيء. حتى من فرطِ السعادة لم أبكِ. أظنُّ دموعي قد نفدت. أنا لا شيء سوى صحراء قاحلة؛ حتى الشوك لم يعد ينبت بداخلي.

اليوم الخمسون منذ مرض والدي

لم نعد نملك شيئًا: لا مال، لا طعام، لا مأوى سوى هذا البيت المغطّى بالأشجار، منزل الشيخ عبد الرقيب الذي أصبحت تسكنه الأشباح لا نحن. نقتاتُ الصمت، نتقيأُ الوحدة، ونتجرعُ المرارةَ كلّ يوم. لا نغادر البيت إلا إلى الصيدلية وفي الخفاء؛ نأتي بأدوية أبي ونتناوب على رعايته. أكتب كثيرًا. أحرف يومياتي تلفظني كما تكتبني. أنا كاتبةٌ بائسةٌ لا أملك حتى رصيدَ إنترنتٍ لأُنشر ما كتبت.

لم أكمل الجامعة؛ عبد الرقيب أضاع أبسط حقوقي في الحياة. كيف أعود؟ لا أملك تكاليف الدراسة. فكرت أنا وأمي في بيع بعض قطع الأثاث الثمينة، وفعلاً بعنا الكثير منها. لم يتبقَّ لنا سوى بضعة أشياء تكفينا نحن الثلاثة، فتاتٌ رَمَيْنَاه في مكانٍ لم نعد نحتاجه، ذلك المكان كان ملاذي. كنت أعتلي تلك الأكوام من السجاد والملابس وأكتب هناك؛ أدفنُ نفسي هناك، وأقيم جنائز لا تنتهي لروحي ولأرواح كل من فقد مكانته عندي.

مروان كان الوحيدَ الذي لم أقم له جنازة. إنه لا يستحقُّ حتى أن يُدفن. قررتُ الخروج والمشي لساعاتٍ أطول؛ أبحث عن عمل. لا أملك مؤهلاتٍ رسمية؛ أنا كاتبةٌ مشوّهةٌ بالندوب، مكسورةُ الأجنحة، هزيلةٌ وهشّة جدًا. غير أن هشاشتي كانت داخليّةً لا تظهر؛ تنجلي حين يُشرق الصباح. تعود الأميرة إلى شكلها الأصلي، وينقشع الليل، ويحول النهارُ بينها وبين أميرها.

المنزل

قرأت ذات مرة أن شعورَ البيت يعادل ألفَ شعورٍ من السعادة.

لكن البيت، في كل فتراتِ حياتي، كان يعادلُ ألفَ شعورٍ من الخيبة. شعورُ أنّك لا تنتمي أصعبُ من شعورِ الخيبة ذاتِه. أنا لم أنتمِ لمكانٍ أبدًا، لا هنا ولا هناك. أنا رحّالة، مركبةٍ غير مستقرة، قطارٌ يجوب العالم ولا يتوقف. الكتابةُ تنقلني إلى أيِّ مكانٍ أشاء. تارةً أغوص في العصر الفيكتوري، وتارةً أغرق في الأدب الإنجليزي، وتارةً أجدُني صامتةً لا أكتب إلا عن حبٍّ لم يكتمل وعن حبٍ لم يبدأ بعد.

أنا الآن حرة؛ أجوبُ المنزلَ ممسكةً بالقلمِ والورق، لا أحدَ يمنعني، لا أحدَ يوقفني، لا أحدَ يلحظ هذا الكمَّ من الوجومِ المطبقِ على روحي. لا أشعرُ بالانتماء: لا المنازل تحتويني، ولا القلوب. أحتاج بعضَ السعادة. الجميعُ يتحدّث معي عن الأحزان، أغوص معهم ثم أقذفهم خارج البحر وأبقى هناك. أريد سماع شيءٍ واحدٍ مفرح؛ القليلُ من السعادة سيَنقذني، سيجعلني أمرُّ من الشارع ذاتهِ وأبتسم، أزورُ الأماكن ذاتها وأبتسم. القليلُ من السعادةِ سينقذني من بؤرةِ الكتمانِ التي تغلّفُني.

والدي لا يغادر فراش المرض، وأمي تقضي النهار في الصلاة والدعاء، وفي الليل تجلس بجانبه تقصُّ عليه حكاياتِ الماضي بشغف؛ تحكي له عن القرية وعن أيام زمان وحكايات الزمن الجميل. تسمعه أحاديث شهرزاد

وطغيان شهريار. ينظر إليها بحنانٍ وحبٍّ؛ هو لم يعرف عنها سوى اسمها أراهن أنه لم يصغِ إليها من قبل، لم يسمعها تغنّي لفيروز أو لعبد الحليم. كان صوتها عذبًا جدًا لكنه لم يسمعه. الآن تلقي عليه تهويداتِ الهوى، تطربه وهو يبتسم. إنه يحبّها الآن، وهي لا تنتظر مقابلًا لهذا الحب؛ هي فقط تريد كينونته بجانبها.

لم أرَ امرأةً تحبّ بهذه الكثافة والغزارة. هي ترى فيه قصائد درويش، حب ابن الملوح. حدّثونا عن ملهمات الشعراء: ليلى وعبلة وخولة وبثينة وعزة... لكنهم وأدوا ملهمي الشاعرات، ولعلّهم وأدوا الشاعرات بأنفسهن. أمي ترى قسوةَ أبي حبًا، وظلمه حنانًا وهي ليست الوحيدة في ذلك. كيف لامرأةٍ أن تمنح كلّ هذا الحب دون مقابل، دون قيد أو شرط؟ ليتني أستطيع الحب بهذه البساطة. أنا، إن أحببت، فاختياري صعب، وإن اشتقت فشوقي ملحٌ. لا أرضى بأنصافِ الفرص ولا بأشباحِ الحكايات.

أنا أحبّ، وأحيانًا لا أحبّ. أمطرتُ يومًا بغزارةٍ مع إبراهيم؛ والآن لا أفقه كيف يحبّ الإنسان. أنا لا أنتمي حتى إلى البيت.

❊ ❊ ❊

معاناتي المتجددة

بعد اشتداد حاجتنا إلى المال هرعت ألملم ما تبقى مني. خرجت أبحث عن فرصة عمل، لكن من عساه يقبل توظيف فتاة لا تحمل سوى شهادة ثانوية؟ عبد الرقيب حرمني من إكمال دراستي الجامعية، أخذ على عاتقه مسؤولية تربيتي ، كان يقومني ليجعل مني أنثى صالحة للحياة: تلاحق الأطفال، وتستجيب لمتطلبات زوج يخونها ليلًا ويستعبدها نهارًا.

أنا الآن، لست تلك الأنثى الصالحة . أجوب الشوارع وحيدة، أبحث عن عمل يسد جوعي، ويعينني على إعالة والدي ووالدتي. عشرات مقابلات العمل باءت بالفشل. من عساه يقبل بكاتبة هشّة مثلي؟ لا تعرف شيئًا، ولا تملك شهادات، ولا إنجازات تُذكر. كل ما أملك للصمود في بيئة قاسية هو الصبر وقوة التحمل، لكن من يقرأ هذا في سيرتي؟ يبحثون في خانة الشهادات، فيجدونها خالية إلا من شهادة ثانوية بمعدل هزيل لا يفتح بابًا لوظيفة.

كنت عائدة من خيبة أخرى. جلست في الصف الأخير للحافلة لأختلي بذاتي المهشمة وأعيد ترميمها قبل أن أصل إلى البيت. وضعت رأسي على زجاج النافذة، أتأمل الطريق: شوارع مكتظة، باعة متجولون، وأطفال يحملون علب المناديل عند التقاطعات. هم أيضًا جائعون، يبحثون عن سبل نجاة في وطن مبعثر إلى قطع صغيرة، مثلي تمامًا. نحن نشبه أوطاننا: ننكسر حين تنكسر، ونقوى حين تقوى، فإذا وهن الوطن، وهنّا معه.

لم يقطع سيل أفكاري سوى امرأة جلست إلى جواري، وضعت يدها على الملف الذي كنت قابضة عليه وكأنه آخر ما أملك. سألتني:

تبحثين عن عمل؟

نعم، عدت للتو من مقابلة عمل ولكن دون جدوى.

أنا أنهار، إذا أحببت يمكنني مساعدتك.

لا أحد يمكنه مساعدتي.

ما تخصصك الجامعي؟

درست إدارة أعمال، لكن لم أكمل دراستي لظروف خارجة عن إرادتي.

أنا أعمل في شركة ناشئة ونبحث عن موظفين في العلاقات العامة .

مدت إليّ ببطاقة مكتوب فيها أرقام هواتف. أشارت لواحد منها قائلة: هذا رقمي، تواصلي معي.

سأفعل، شكرًا لك.

تلعثمت من فرط المفاجأة، ولم أستطع أن أعبر عن سعادتي. شبح ابتسامة تسلل إلى وجهي، وبقي معي حتى وصلت إلى المنزل بعد عشر دقائق. ظللت أحدّق في البطاقة طوال الطريق حتى حفظت الرقم وكأنه اسمي.

دلفت غرفتي مسرعة، فتحت هاتفي، لكنني تذكرت: كيف أتواصل معها وأنا لا أملك رصيدًا؟ خرجت إلى بقالة الحي، وحدثت عم يحيى صاحب الدكان

عن فرصتي الجديدة، ووعدته أن أسدد المبلغ في نهاية الشهر. تردد قليلًا، ثم ناداني ووضع النقود في يدي قائلًا: الله يوفقك يا ابنتي.

عدت إلى غرفتي دون أن ألتفت إلى أمي التي حاولت أن تكلمني وتقدم لي الغداء. حفظت الرقم باسم أنهار ، وأرسلت إليها رسالة واتساب، ثم جلست أترقب الرد. ثلاث ساعات وأنا أحدّق في شاشة الهاتف بانتظار كلمة تدعوني للذهاب غدًا إلى العمل. كم سيكون الراتب يا ترى؟ إنها السابعة مساءً، ولم يصلني أي رد بعد.

في اللحظة التي هممتُ بالذهاب لأجلس مع والدي سمعت إشعارًا من هاتفي. لم تكن أنهار المرسلة، ولم يكن عرض عمل ولا رسالة من صديقة. كانت رسالة انتشلتني من مكاني وقذفت بي نحو هاويةٍ أخرى. رقمٌ دولي غريب بدأ محادثته كعادته:

أهلًا بمثقفتنا الصغيرة.

توقفت طويلًا أمام الرسالة. تغيّر أسلوبه قليلًا؛ كان يناديني «مثقفتي الصغيرة» بهذا الشكل المقصود، فهو يعرف أني لا أتخطى حرفًا واحدًا من رسائله.

توقفت طويلًا أمام الرسالة. تغيرت العبارة قليلًا، كان يناديني مثقفتي الصغيرة . هو يعرف أني لا أتخطى حرفًا واحدًا من رسائله.

كيف حالك يا إبراهيم؟

عرفتني بسرعة!

هل نسيتك حتى أتذكرك؟

كيف حال قلبك في زحمة الحياة؟

بخير، لم تعد تؤثر بي بعض الرضوض، مشتاق لسماع أخبارك.

أنا بخير، ما زلت أقاوم.

أعتذر لك بشدة.

لا بأس، لم يعد الماضي يعنيني.

هل أنا أيضًا لا أعنيك؟

لم أقصد إيذاءك، حدثني قريبي عنك اليوم، أخبرني أنك تقدمتِ لوظيفة في المركز الذي يديره، عرف اسمك وتحدث معي.

نعم، ذهبت اليوم لمقابلة عمل، ظننتهم لم يقبلوا بي.

لمَ تبحثين عن عمل يا وئام، هل لفظتك الشواطئ؟ أين هو عبد الرقيب؟

والدي يصارع الموت كل يوم، أصبح أسير صمته ومرضه، وأنا الآن أبحث عني.

هل ما زلت تكتبين؟

أكتب كل يوم، أتقيأ مرارتي كل يوم على الأوراق، لم تعد الكتابة تريحني، بل تزيد معاناتي شيئًا فشيئًا.

هل ما زلت تكتبينني؟

هل ما زلت حرفي الثامن والعشرون؟

أظنني تنازلت عن مكانتي منذ زمن.

هل بكيتني يا إبراهيم؟

لم أبكِ حين قلتِ لي لنفترق، بكيتُ حين استيقظت في السادسة والنصف من صباح ذلك اليوم. كنت أستيقظ كل عشرين دقيقة، أنتظر منك رسالة، إلى أن وصلت إلى الساعة السادسة والنصف وانهارت دموعي دون توقف وكاد نفسي ينقطع. ذكرياتك كانت في كل زاوية مني. بكيت لأنني اشتقت إليك، بكيت لأنني أردت الذهاب إليك لأبوح لك بشوقي ولكنك لم تكوني موجودة. بكيت لأن محطة راحتي وأماني هُدمت وباتت بعيدة عني تمامًا. مرت شهور ولا زلت أبكي وكأنك غادرتني منذ دقائق، ما زال صوتك يناديني والشوق في صدري يفتت أضلعي. حاولت إخفاء شوقي وحبي، وكلما حاولت فاضت عيناي. لم أبكِ حين زُج بي في السجن وكأني مجرم، بكيت قلة حيلتي لأنني لم أكن لك مصدر أمان. وئام، أنا لا أستحقك.

لا تقل هذا يا إبراهيم، أنا لم أفعل شيئًا أيضًا، لقد استسلمت أمام سوط عبد الرقيب.

لكني وعدتك بالأمان.

وأوفيت بوعدك، مجرد الشعور بك يشعرني بالأمان.

لماذا أحببتني يا وئام؟

أحببتك بصدق، بلا مبررات. أحببتك بلا حدود، بلا شروط. وجدت فيك كل ما يمكن أن أحتاج إليه. أحببت عيوبك وصمتك وكل ما يميزك. منذ عرفتك لم يمضِ يوم دون أن أفكر فيك. كنت أرفض الانتماء إلى أي شيء، لكنك جئت وانتميتُ إليك، لقد جعلتني أؤمن بأن الحب ممكن.

كنت أراقبك يا وئام، لم أكن أكتفي بمحادثتك من خلف الشاشة. كنت أذهب كل يوم وأنتظرك أمام بوابة الجامعة، أردت رؤية تعابيرك، رؤية عينيك حين تضحكان مع زميلاتك، احتضانك للكتب، مشيتك، جرحك لم يمنعك من مواصلة حياتك بشغف. أحببتك يا وئام كما لم أفعل من قبل.

ندمت على لحظات كثيرة.

على لحظاتنا؟

لا، بل تلك التي بقيت فيها صامتة.

هل استطعتِ قولها لنفسك؟

وما الفائدة إن لم تكن أنت من يسمعها؟

لقد قلتها وهذا هو المهم.

إبراهيم.

نعم؟

أحبك.

أنا أيضًا أحببتك.

وهل ما زلت؟

مرت لحظات صمت ثم سألني:

كيف أوضاع البلاد؟

مدمرة، كل يوم أسوأ من سابقه. كيف هي الحياة بعيدًا عن اليمن؟

جميلة، الشوارع هنا نظيفة جدًا، الجميع هنا مثابرون، يعملون، يرفهون عن أنفسهم، الحياة هنا مختلفة. هنا الحب لا يوأد.

هل لنا حياة خارج أسوار أوطاننا؟

كانت ستكون هناك حياة فعلية، حياة نعيشها، ليست فقط على أوراقك، يا وئام.

لم تعد تؤرقني فكرة إخفاء الأوراق، أصبحت حرة.. أحدهم يناديني، سأنصرف.

أحب أن أخبرك أنك قُبِلتِ في العمل، استلمي مكانك في أقرب وقت ممكن، كل التوفيق.

لم أرد بعدها، ولم يرد هو. خيم صمتٌ ثقيل على كلينا. لم يخبرني إن كان لا

يزال يحبني؛ لقد نفاني ونفتني الشواطئ والأحلام بعيدًا، كأنه دعاني ألا أنساه. حاولت تخطيه، كل ما فيّ يصرخ ألمًا وشوقًا، يصرخ بعدًا. كيف لي أن أفكر فيه، وأنا سبب ضياعه؟ أنا تيهه، أنا أنثى هشة كقصيدة غير مقروءة كتبت على رمال. أنا موجة عاتية تضرب الصخور دون أن يكون أحدهم على الشاطئ. أنا الليل والعتمة والضياع، أنا كل تصدعات الجدران، أنا له ولست له، أنا لي.

كل ما أمكنني فعله هو مراقبة أخباره على صفحته المكتظة في الفيسبوك. أنا مكسورة كشاشة اللابتوب الخاصة بي. في الوقت نفسه أشعر بالسعادة لأن إبراهيم يعيش حياة مختلفة، حياة مليئة بالألوان. لقد سميت هروبي منه موتًا، موتي كان له حياة.

أريد أن أنسى، أن أسافر بعيدًا عنه كما فعل هو. أنا أذوي كشمعة، أذوب دون أمل في بعثي. ما الذي فعله بي هذا الإبراهيم؟ لقد عاش احتراقي، موتي، جنازتي، أخرجني من تابوتي. لملم رمادي وأعادني للحياة. كأنه دعاني ألا أنساه وكل شعوب الأرض رددت آمين. قالها محمود درويش: كل الطرق تؤدي إليك حتى تلك التي سلكتها لنسيانك.

مرت الأيام وبدأت عملي بكل اجتهاد. لم أعد هشة؛ أصبحتُ أقوى. كنت أسترق الوقت بين الحين والآخر لأكتب؛ أكتب عن كل شيء ولا شيء، كتابات بلا هدف. فكرت في رسم خطة للكتابة، لأنثر ما يعتمل بصدري بشكل بناء.

بدأت في كتابة سلسلتي الأولى، وتفرعت كثيرًا. كتبت عن كل شيء وعن اللاشيء، ولكنني كنت أجد نفسي في تلك الأسطر. رأيت عبد الرقيب مثالًا للعنف في ذهني، وأمي رمزًا للولاء والتضحية. ومروان مثالًا لاقتناص الفرص، وإبراهيم رمزًا لكل المعاني الجميلة. كتبت نفسي دون أن أشعر.

كنت أشتاق لإبراهيم أكثر، لكني كنت أمنع نفسي من التحدث معه وأكتفي بمتابعة أخباره عبر وسائل التواصل. أراقب نجاحه في دراسته وعمله. هو لم يعد كما كان، وأنا أيضًا.

ظننت أن ما جمعنا كان الحب، لكنه لم يكن حبًا، بل كان اطمئنانًا، شعورًا أقوى من الحب ذاته.

❊ ❊ ❊

سكون

إنه الليل؛ الساعة الثانية بعد منتصف الليل. كل شيء هادئ في هذه المدينة سوى قلبي؛ ولا يعلم أحدٌ كم أبذل من جهدٍ حتى لا تعكس ملامحي الحزن. هذا الهدوء مزعج، لكن بإمكاني أن أحزن الآن. ظننت أنني قد تخطيت الأمر، لكنّي وجدت نفسي أبكي للسبب ذاته للمرة المليون.

قرأت جملةً تقول: خذوا دائمًا ما يليق بكم ويوازي أرواحكم: من حلمٍ، أو أشخاصٍ، أو حتى كلمات. كان إبراهيم يوازيني تمامًا؛ يشبهني، وكنا نستلذُّ بالهشاشة معًا.

لا أعلم من أين أتتني هذه الأفكار؛ تخيّلتُ أني أشاركه المنزل والمكان. في الحقيقة لم نتشارك شيئًا: لم نتبادل القمصان، لم نأكل من طبق واحد، لم تجمعنا موسيقى واحدة. لم يجمعنا سوى محادثات جافة على جهاز مبتذل، ولقاء يتيم لم أشعر فيه بشيء.

لماذا كل هذه الأفكار؟ أي تيه هذا؟ صرت أخاف أفكاري، أخاف أن يجد من تليق بقلبه غيري. رأيت إحداهن تعلق على جميع صوره التي ينشرها. هي لم تعانِ كما فعلت أنا؛ لم تستيقظ من نومها لتقرأ رسائله أو لتكتبها له، أو لتطمئن عليه. لم تقلق لزكامٍ أصابه، أو لأنه سهر لساعات طويلة في الليل. هل كتبته كما فعلت أنا؟

غرقت في أفكاري حتى الصباح. نهضت بتثاقل، ارتديت أول ما وقعت عليه عيني؛ لم أكترث لمظهري غير الأنيق ولا لحذائي غير المتناسق مع حقيبتي. لم ألتفت لأي شيء؛ كل ما أردته أن ينتهي اليوم بسلام. احتاج للنوم أكثر من أي شيء.

توجهت للعمل وبنفس الرتابة: وظيفة مملة في مكتبٍ ملون بالرمادي والأسود. أظن أن البؤس قدري يلاحقني أينما حللت. أعمل سكرتيرة من الثامنة صباحًا حتى الخامسة مساءً. أقابل عشرات الناس يوميًا، يحدقون بي بلا رحمة، وأتلعثم كثيرًا. أكره أن تُسلَّط أعينهم عليّ كلما كتبت شيئًا. ابتساماتهم الصفراء تشعرني بالغثيان. لا أضع مساحيق تجميل، ومع ذلك يحدقون بي؛ يدهشهم منظري دون نقاب؛ وهذا منظر غير شائع في بلادي.

وضعت كمامة طبية أملاً في التخلص من نظراتهم، لكن دون جدوى؛ استمروا في التحديق في عينيّ، في ملامحي المتعبة من ثقل السنين.

أسترق وقتَ الغداء لأكتب. أنا على وشك إنهاء كتابي الأول؛ مولودي البكر الذي سأمطره قبلاتٍ، وسيغفو بجانبي على سريري، وسأحرص أن يظل محفوظًا بعيدًا عن أعين الدخلاء. فكرت: هل توجد دار نشر تقبل أفكاري الناقدة، قصصي المؤلمة؟ من يقبل أن يضع اسم كاتبة ملطخة بالخيبات على غلافٍ أسودٍ رمادي يشبهني؟

أنا الآن أنوي إنهاء الكتاب؛ لن أعجز عن الحصول على موافقة دار نشر.

بعد انتهاء دوامي، استقلت أول باص مرّ بي، ونزلت في الجولة التالية. قررت

أن أكمل الطريق إلى البيت مشيًا. المسافة طويلة، لكني أحتاج إلى أن أكون وحدي بعيدًا من الضجيج. غرقت أكثر في الذكرى، فتحت هاتفي وتصفحت آخر منشوراته؛ قرأت تاريخ عودته: سيعود بعد شهرين من الآن؛ سيعود إلى اليمن. شعرت بفرح وحزن يجتاحني في اللحظة ذاتها. لم نعد نتكلم كما كنا، لكنه سيعود؛ وربما نحظى بفرصةٍ جديدة.

وسط تأملاتي فكرت بإرسال رسالةٍ صوتيةٍ له بلا مقدمات: سعيدة لأنك ستعود؛ أرجو أن تكون سعيدًا أيضًا. أغلقت الهاتف وتابعت المشي. وجدت والدي يمشي ببطءٍ في الحديقة، ويحدق في الأشجار.

لم أصدق ما رأيت: لقد بدأ يتعافى. وقفت بعيدًا أنظر إليه، وتمنيت في تلك اللحظة أن أركض نحوه كفتاةٍ في الخامسة من عمرها لأحتضنه لمرةٍ واحدة، ليشعر بحرارة دموعي على كتفه. لكن أبسط أحلامي لم تتحقق.

تقدمت نحوه وتنهدت قائلة بسعادة:

الحمد لله على سلامتك.

الله يسلمك يا ابنتي.

لم أتوقع أن تمشي بهذه السرعة، خصوصًا بعد كلام الأطباء.

الله كبير يا ابنتي، الله كبير.

ثم التفت ببطء ومشى حتى دخل الحجرة الرئيسية وواصل طريقه لغرفته دون أن يلتفت إليّ.

إنه يتجنبني، يتجنب النقاشات الطويلة معي، حتى حين حصلت على وظيفتي، لم يهنئني، لم يسأل عن التفاصيل، فقط أومأ برأسه والتفت لمصحفه يقرأ فيه.

يشعر بالانكسار في وجودي لذلك كنت أتجنبه. أعود من عملي، أُحييه باقتضاب، أتحدث مع أمي قليلًا، ثم أذهب وأنغمس في أحضان أوراقي.

يقولون كل فتاة بأبيها معجبة، لكني غير معجبة بابي! هل لأنه لا يشبه الآباء؟!

اليوم عزمتُ على إنهاء الكتاب، وغدًا سأبدأ رحلة البحث عن ناشر. لقد وضعتني بكاملي في كتاب أسميته "رماديتي".

❊ ❊ ❊

بلقيس

أظنني لم أتحدث عنها كثيرًا. الفترة التي جمعتني بها كانت قصيرة، ومأساوية إلى الحد الذي تناثرت معه قطرات الدم على أرضية منزل عبد الرقيب.

بلقيس، زوجة أبي، لم يتجاوز عمرها الثامنة عشرة. زفافها ارتبط بذكرى مؤلمة لي؛ كنتُ يومها محبوسة في مجلس الرجال، وكان دخولها بيتنا عرسًا يُراد به إخراجي من ذلك السرداب.

كانت تتقرب مني بشكل ملحوظ، وكنت أحب أحاديثها الخفيفة. لم تكن تتحدث كثيرًا، كانت صامتة وحزينة أغلب الوقت، لها شخصية مختلفة. مظهرها أنيق ومرتب، كأنها عادت لتوها من باريس. تتحدث الإسبانية والكورية، ولا أحد كان يعرف ذلك سواي.

كنا نقضي وقتًا طويلًا في غرفتي؛ أطلعها على ما أكتب، فتترجمه إلى الإسبانية، وتنشد قصائدي بلغة لم أفهمها ولكنها بدت ساحرة. علمتني الكثير من الإسبانية، والأهم أنها كانت تخبئ كتاباتي في خزانتها، بينما كان عبد الرقيب ينتهك غرفتي ويبعثر أغراضي بابتسامة انتصار، دون أن يدرك أن قصائدي تنام على مقربة منه، في خزانة ملابسه نفسها.

كنتُ وبلقيس نشعر بلذة الخديعة، كأننا هزمنا الطاغية للحظة. هي الوحيدة التي شهدت على مشاعري مع إبراهيم؛ أخبرتها بكل ما يثقل صدري، وكانت

تزودني ببطاقات الإنترنت خفية. أخبرتني عن حبها القديم، عن خالد، المعيد الأردني الذي هام بها حين سمعها تتحدث الإسبانية. حلمت معه بالسفر وبحياة مختلفة، لكنها وجدت نفسها زوجة لرجل يكبرها بثلاثين عامًا، فقط لزيادة مصالح العائلتين.

حدثتني عن طموحها في أن تصبح رائدة أعمال في مجال الموضة، لكن عائلتها رفضت الفكرة؛ فكيف لبنت شيخ أن تصبح خياطة !

محادثتي معها في ذلك اليوم لا تفارقني أبدًا. أتت لزنزانتي ذات صباح لتحضر لي الإفطار.

يجب أن تأكلي يا وئام، لن ينفعك لا عبد الرقيب ولا مراد.

لقد دمرا حياته بلا ذنب.

ذنبه أنه أحبك في بلاد لا تعرف معنى الحب.

أحقا، أنتِ من تقولين هذا يا بلقيس؟

لا قدرة لك على الوقوف في وجه عبد الرقيب أو مراد، كلاهما وجهان للعملة ذاتها.

لم أكن لأقف مكتوفة اليدين على الأقل. أكره نفسي يا بلقيس، أنا خطيئة.

قدرتكِ على الشعور العميق هدية في عالم قاسٍ. لا حاجة لك أن تكرهي نفسك أو تتنكري لتصيري شخصًا آخر. العالم يحتاج إلى المزيد من المحاربين المتعاطفين.

كلماتها كانت نسمة عليلة في قيظٍ خانق. لكنها غادرت وأعادت إغلاق الباب عليّ. وعدت للتقوقع من جديد.

لم تكن بلقيس عابرة في حياتي. كنتُ خلاصها من معتقل عبد الرقيب، وكانت هي ملاذي الآمن الذي حمل رسالتي الدامعة إلى إبراهيم يوم زفافي، حين كتبت على ورقة قديمة كلمة عجزت عن قولها له.

حين عادت بلقيس ذاك اليوم وجدت أبي يقف أمام المنزل ينتظرها، يطالعها بنظرات غاضبة وحواجب معقودة وأنفاس متضاربة.

أين كنتِ؟

خرجا لأبتاع لوازم الزفاف.

وأين هي تلك الأشياء؟

ارتبكت، وارتجف صوتها:

لم يعجبني شيء.

هل تحاولين استغلالي؟

لا يا شيخ، ولكن...

تلقت صفعة أسقطتها أرضًا، انزلقت يداها وجرحت بطرف الباب الحديدي العتيق، سال دمها فوق الأرضية التي شهدت كل صفعاتي وكل الركلات التي حطت على جسدي. بلقيس تنزف. هذا كل ما فكرت فيه، كنت أقف بعيدة أشاهد الموقف وأنا أرتعش خوفًا على بلقيس، لم أكن خائفة من والدي؛ لقد

اعتدت تلك الصفعات. كنت خائفة على بلقيس، هي لم تجادله، لم تتلفظ بأي حرف، كانت تحاول لملمة ما تبقى من كبريائها المتناثر على الأرضية. أمسكها والدي وضغط على جرحها النازف، وصرخ في وجهي:

لو لم يكن زفافك لسال دمك بجانبها اليوم.

ثم التفت إليها وقال الجملة التي انتظرتها طويلًا:

أنت طالق.

غادر وهو ينهال عليّ بالشتائم. أما بلقيس، فقد ضحكت كما لم تفعل من قبل، مستلقية على الأرضية، غير آبهة بجرحها النازف:

لقد حررني يا وئام.

ابتسمتُ لسعادتها، بينما كنت أمسح دمها عن فستاني الأبيض، الكفن المزخرف الذي أرادوه لي.

❊ ❊ ❊

محاولاتي

استجمعت قوتي وكتبت لإبراهيم:

لقد ظللنا الطريق، وخانتنا الأحلام، هل مازال يجمعنا طريق واحد؟!

لم أكن أترقب ردًا يماثل خفقان قلبي، أردت فقط بارقة أمل أستند إليها في ثقل أيامي. كل ما أرادته طفلة الخامس والعشرون كان شعورًا يطمئنها بعد رحلة شاقة. أعلم أنه لا يحق لي أن أقترب منه ثانية، لقد عاش احتراقي وطالته ألسنة اللهب المحيطة بي، ولكن من عساه يقنع قلبي بذلك؟

مر أسبوع كامل لم يرد فيها على رسالتي الحمقاء التي عجزت حتى عن حذفها! حاولت تناسي الموضوع والغرق أكثر في مخططاتي، في رحلتي العصيبة، في معضلتي الأكبر. لكن أبت مشاعري أن تغادرني ولو لليلة فقط.

وعند الثانية واثنتين وعشرين دقيقة بعد منتصف الليل، سمعت صوت إشعار اهتزت له روحي. كنت أعلم أنه منه. تلك الرسالة من إبراهيم. بقيت أحدق في اسمه على شاشة هاتفي، ثم فتحت الرسالة:

عزيزتي وئام، لقد ظننا يومًا أن سفينتنا قادرة على مقاومة الرياح، وأنها ستبحر كيفما شاءت. لكن الرياح لم تتوقف، وسفينتنا لم تصمد. أنا أشعر بالخذلان والحنين معًا؛ خذلان لمشاعري التي

دفنت يوم جُررت كالأسير إلى سجن مظلم، وحنين إلى الأوقات التي جمعتني بك يا مثقفتي الصغيرة.

كتبتُ:

لمَ لا نحاول الإبحار مجددا، لربما طابت لنا الرياح، أو خف حمل سفينتنا، أنا أيضا أحن لوقت كنت أنت مَلِكُه.

وهل تجري الرياح دوما بما تشتهي السفن؟

لربما جرت ذات يوم.

إلى أن يأتي ذاك اليوم، كوني بخير.

هل حقا تريد إنهاء هذا النقاش بهذا البرود يا إبراهيم!

لا أريد إلا أن أضع نهاية لأوجاعك يا وئام. أشغلي نفسك بما تحبين، اكتبي أكثر... وسأقرأ.

أنا أكتب. وقد أنهيت مسودة كتابي الأول.

وماذا أسميته؟

رماديتي.

أما زلت على غير وفاق مع الألوان؟!

أنا دوما في منتصف كل الألوان التعيسة، أنا مزيج كل شيء ألا تستطيع رؤيتي؟

بلى، أستطيع رؤيتك.

إبراهيم.

نعم، يا وئام.

هل بإمكاني سماع صوتك ولو لثانية واحدة فقط.

اتصلَ بي، بينما كانت أطرافي ترتجف. هل سأسمع صوته بعد كل تلك الأيام العجاف؟

ضغطت على زر الرد، أتهيأ لسماع سمفونيتي المفضلة.

وئام

أتى صوته دافئا في ليل الشتاء. فأيقظ في داخلي شوقًا لأيام كنت أصغي فيها لصوته. لم أرد بشيء؛ انفجرت ينابيعي دفعة واحدة، غمرت الدموع وجنتيّ ويديّ وروحي. ثم انقطع الاتصال.

عدت إلى محادثتنا، فوجدته يعتذر عن انقطاع الاتصال. لم يعرف أني اكتفيت، وأن تلك اللحظة كانت كافية لتعيدني من جديد، لتشكلني كيفما شاءت قوانين الحب.

إبراهيم.

نعم.

أريد أن أقول شيئا دون أن تبني عليه أي تفسير؛ فقط أحتاج لقولها.

قوليها.

أحبك.

وأنا أيضًا أحبك.

أنهينا هذه الليلة هكذا، دون وداع، دون مزيد من الكلمات. كان الصمت هو سيد الموقف، عرفت حينها أن هذا الحب لن ينجو.

❊ ❊ ❊

كتابي الأول

بدأت فصولُ كتابي تكتمل، لكنني لم أكن أعرف كيف أبدأ. أصبح تحقيقُ حلمي قريبًا جدًا. وبينما غَرِقتُ في الكتابة أثناء وقت الدوام، دخل المدير ونظر إليّ ثم أومأ لي بأن أتبعه إلى المكتب. شعرتُ بأن نهايةً ما تلوح، وبدأتُ أُلومُ نفسي طوال الممر المؤدي إلى المكتب: هل سيُخصم من راتبي مقابل إهمالي؟ أم سيتخلى عن خدمات كاتبةٍ مشتتة؟

وقفتُ باستحياء أمامه. لم يوبّخني، ولم يخصم من راتبي، ولم يطلب مني الاستقالة. فتح أحد أدراج مكتبه وأخرج بطاقة بنفسجية اللون. نظرتُ إليها؛ مكتوب عليها بخط عريض: دار آزال للنشر والتوزيع .

يمكنك التواصل معهم والبدء في إجراءات تقديم إبداعك للعالم.

ولكن كيف عرفت أني! أقصد...

لا داعي للتلعثم. ابتسم ابتسامة صادقة ثم أضاف: الجميع هنا يعرف أنك كاتبة رائعة. نحن من أكبر الداعمين لك على مدونتك. ألم تقرئي تعليقاتي؟

أعتذر منك، ولكني لم أتصفح مدونتي منذ وقت طويل.

يجب عليك مواكبة معجبيك. أنت كاتبة موهوبة. مقالاتك ونصوصك تستحق الإعجاب.

هذا لطف كبير منك، أشكرك.

اشكريني بنسخة من كتابك.

نازعتني مشاعر متضاربة فعجزت عن الرد. استأذنت وانصرفت وأنا أشد قبضتي على البطاقة. وضعتها في حقيبتي وأمضيت بقية دوامي أحارب رغبة إخراج البطاقة والاتصال بدار النشر. عدت إلى المنزل وأنا أحاول تناسي موضوع نشر الكتاب. وجدتها فكرة غير مجدية؛ من عساه يقبل بنشر كتاب لكاتبة غير مرئية مثلي! فكرت: لمَ لا أجرب؟!

التقطت هاتفي وكتبت رسالة مقتضبة على الواتسآب:

السلام عليكم، أنا وئام، كاتبة غير معروفة، غير مرئية، أرغب في نشر كتابي الأول في داركم، كتاب سميته رماديتي.

عدت لرسالتي عشرات المرات. أيقنت أن طلبي سيُقابل بالرفض؛ حتى صياغته كانت غير رسمية وغير مُنمقة. وضعت الهاتف جانبًا وأغلقت عيني محاولةً النوم، لكن الأرق كان يحتل مساحة شاسعة مني ولم يترك لأحلامي متسعًا.

مضى شهر كامل منذ أرسلت تلك الرسالة إلى دار النشر، وظللت أتابع أخبار إبراهيم من بعيد. شعرت بشوق يكاد يفتك بي. لم يتبق على قدومه إلى اليمن سوى شهر واحد؛ شهر واحد يفصلني عن رؤيته. ورغم أن المسافة بين قلوبنا باتت أبعد من المدن والقارات، وملايين الأميال من الجفاء تفصلنا، لم أستسلم.

دخلت حسابه الشخصي وبدأت أكتب رسالة طويلة له. كنت مستغرقة في الكتابة حين تلقيت إشعارًا من دار النشر. قفزت من فرط الحماس؛ نسيت الرسالة التي كنت أكتبها لإبراهيم. كانت رسالة انتظرتها طويلًا. طوال حياتي حلمت بلحظة يوضع اسمي على غلاف كتاب، أن يقرأني الجميع ويقتبسوا من نصي جملًا يُشار إليها في رسائلهم ومحتواهم على مواقع التواصل. كنت أحلم بأن يكتب يومًا: لا يجوز نسخ أو استخدام النص إلا بإذن من الكاتبة .

قرأت محتوى رسالة دار النشر:

مرحبًا، أنا الأستاذة ندى، رئيسة قسم تقييم النصوص. يسرّني أن أقرأ النسخة المعدّلة من كتابك، ثم نعرضها على بقية أعضاء اللجنة. في حال الموافقة يسرّنا أن تشرفينا في الدار للحديث عن بقية التفاصيل. يرجى إرسال بياناتك المطلوبة ونسخة إلكترونية من الكتاب.

عاد الأمل يطرق أبوابي مجددًا، وظهر القمر مرة أخرى في سمائي المظلمة. على الفور أرسلت كتابي وجميع البيانات المطلوبة، وبقيت في حالة ترقّب: خوفًا من القادم، وأملًا، وهشاشة تلاحقني من الماضي.

توجهت إلى دار النشر في كامل أناقتي. وصلتُ المبنى ووقفت عند البوابة أتأمل جمال المكان وهدوئه؛ شدتني كثرة الأشجار والورود في الحديقة. ما أحببته أكثر كانت صورةٌ منحوتة على حجر للشاعر عبد الله البردوني مقابل صورة بديعة للشاعر عبد العزيز المقالح. شعرت أنهما نقشا هناك ليبقيا إلى الأبد.

الطابق الأول عبارة عن مساحة كبيرة فارغة يتوسطها درج ملتوٍ، غاية في الجمال. صعدت بثقة وكأني أرتقي درجات سلم موسيقي. وصلت الطابق الثاني، مشيت بخفة كالفراشة، كانت السعادة تغمرني، وللمرة الأولى في حياتي، أدخل مكانًا أشعر بالانتماء إليه، مكان يشعرني بالسعادة. أنا فخورة بذاتي. تمنيت أن يفتخر بي أهلي، ثم أدركت أن الفخر ينبع منك أولًا قبل أن ينتقل إلى غيرك؛ فالسعادة تصدر منك، لا من الآخرين.

وجدت مكتب السيدة ندى مواربًا؛ طرقته أكثر من مرة دون أن أسمع جوابًا. أطللت برأسي لأرى من بالداخل فلم يكن هناك أحد. قلت: كيف لا تلتزم بمواعيدها! كنت متذمرة حين وجدتها تقف أمامي وعلى شفتيها ابتسامة لطيفة. لم تعلق على تصرفي ولا على كلماتي، فقط مدت يدها وسلمت عليّ بحفاوة.

وئام، تبدين صغيرة جدًا يا عزيزتي.

شكرا لك، الجميع يقولون ذلك.

جلستُ على أريكة رمادية وجلست هي أمامي، محتفظة بابتسامتها. ملامحها تشيّ بالدفء؛ عينان صغيرتان بلونٍ أخضر مائل إلى الرمادي، أحمر شفاه ناعم، وعباءة مرحة بألوان الزهر. كانت مريحة للعين، وبدا أنها حسنة النوايا.

تفضلي يا وئام لنتكلم عن شروط الطباعة والتوزيع والأرباح المالية وأيضًا..

عذرًا للمقاطعة. لا أريد مكاسب مالية، أريد فقط أن يصل كتابي إلى القراء.

ولكن هذا من حقك!

أرجوك، أنا أحب أن أكتب، لا لتكون مهنة، ولا أرجو مكسبًا.

عزيزتي وئام، أن تأخذي نسبة أرباحك بعد توزيع كتابك لا يعني أنك تمتهنين الكتابة كوظيفة، ولكن هذا حقك، تقديرًا لموهبتك، وحافزًا لتكتبي أكثر.

لكن..

صادفت كتابًا مثلك يا وئام، لكن سرعان ما اعتادوا على الأمر.

ولكي تغير الموضوع أو تنهي النقاش في هذه المسألة سألتني:

وئام، هل لديك شغف في الصحافة؟

الصحافة!

كتابة المقالات، والبحث عن قضايا تستحق النشر. طريقة سردك، وانتقاداتك البناءة بين السطور أعجبتني، وأتمنى أن توظفي موهبتك في الصحافة أيضًا.

لكني لا أملك شهادة جامعية.

لا تحتاجينها، أنا أعمل في صحيفة آزال التابعة لدار النشر وينقصنا عمود مقالات ناقدة. أظنّك تستطيعين أن تتولّي عمودًا نقديًّا لاذعًا

في صحيفتنا.

سأفكر في الموضوع.

توجهت إلى مكتبها، أخرجت ملفًا صغيرًا وناولتني قلمًا. طلبت مني قراءة كل شيء بتمعن، لكني وقّعتُ على عقد نشر الكتاب ووافقت على الشروط رغم أني لم أقرأها كلها.

في طريقي إلى المنزل تسللت دمعة مكبوتة. سألتني السيدة ندى إن كنت أفضل كتابة اسمي الثنائي على الكتاب، لكني فضّلت أن أبقى باسمي الأول فقط. لم أعرف كيف أشرح لها أني أريد أن أكون وحيدة على غلاف كتابي؛ اسمي فقط يعرفني ويعبر عني. كيف أكتب اسم عبد الرقيب بجانبه؟ أنا التي كافحت لأصل إلى هذه النقطة الفارقة في حياتي. كيف يُكتب اسمه على غلافي، وهو الذي حارب حتى لا يحدث هذا؟ ربما لم يعد يزعجني وجود اسمه، لكني غير قادرة على محبته. لا أكرهه، لكن، اعذرني يا أبي، أنا عاجزةٌ عن حبك.

❊ ❊ ❊

أريد أصدقاء

أخبرت أمي برغبتي في العمل كصحفية؛ ابتسمت ابتسامة رضا. أنا الآن أقرب إلى أمي، لكني لا أملك صديقة أسميها صديقة بحق.

هناك، حيث أسدلت عباءة الديجور أطرافها، وقفت مشدوهة، أطالع صفحات الألم تنساب بلا موعد. بحثت تارةً هنا وتارةً هناك. أين ذهب الجميع؟!

سمعت أصواتًا تنبعث من الغرفة المجاورة، غرفة والدي. ركضت سريعًا، دخلت بكامل روحي ثم تقوقعت من جديد؛ فليس لي الحق بسماع أحاديثهما. يبدو أنها تتمحور حولي. ابتسمت: ها أنا محور الكون مجددًا. ثم بكيت أيامي لساعات.

رفعت هاتفي، بحثت عن أرقامٍ وحروفٍ وكلمات... لا بدّ أني فقدت ذاكرتي؛ هكذا أواسي روحي كلما تذكرت أني بلا أصدقاء. صحيح أني أتحدث مع أمي من حين لآخر، لكني أفتقد شعور الصداقة: أن يقاسمك أحدهم كل تفاصيل حياتك ويستمتع بها، أن تخبره بكل ما يجول بخاطرك دون خوف من حكمٍ أو شكّ.

أريد شخصًا أشعر بوجوده مطمئنًا. يقف خلفي ويساندني؛ أن أجد من أتحدث معه في أي شيء دون تكلّف أو حساب. أريد أصدقاء. هكذا عزيت

نفسي هذا المساء وفكرت في البحث عن بلقيس، القلب الحاني، الشخص الوحيد الذي أعتبره صديقًا. لكن كيف أجد رقمها؟ طردت الفكرة ثم عدت لأدعو لها في ظهر الغيب. أغمضت عينيّ ونمت أخيرًا.

❊ ❊ ❊

قوية وبي رغبة للبكاء

بعد أسبوع من عملي كصحفية في جريدة آزال التابعة لدار النشر، شعرت أني لم أعد ضعيفة، لم أعد ذاك الشخص العاجز الذي يندب حظه في الحياة. صرت أكثر صلابة، لكن هذه الصلابة جعلتني جامدة؛ لم تعد المشاعر الإنسانية تهزني كما من قبل. كنت أغطي قضية العنف الأسري، قضية تخصني في جوهرها، ومع ذلك كتبت تقاريري ببرود، حتى دموع الزوجة التي سكبت الزيت الحار على وجه زوجها لم تستطع أن تستدر دمعة من عيني. أدركت أن عجزي عن البكاء بات مشكلة نفسية، لكن في مجتمعي من يقصد الطبيب النفسي يُسمى مجنونًا ، وكأن الجنون خيار يختاره المرء بنفسه، لا نتيجة قهر وأسرة مفككة ومجتمع قاسٍ.

ذلك اليوم، رنّ هاتفي. كانت السيدة ندى تخبرني بصدور الطبعة الأولى من كتابي، وتدعوني لاستلام النسخ التي سأهديها إلى أصدقائي. ابتسمت بمرارة، مسكينة هي، لا تعلم أنني بلا أصدقاء، أنني جيشي وأنا رفاقي.

توجهت إلى دار النشر. صعدت الدرج على عجل، وقفت أمام المكتب، رتبت فوضاي الداخلية والخارجية، طرقت الباب بلطف. استقبلتني ندى بابتسامة عريضة، وأمامها عشر نسخ من رماديتي . أمسكت بإحداها، تحسست الغلاف الأنيق المتدرج بالرماديات، وغرقت في جماله. شعرت بوخزة من فخر ودهشة، مررت أصابعي على العنوان، فتحت الكتاب

ببطء لأشم رائحة الورق الجديد. عند الصفحة الأولى رأيت اسمي بأحرف بارزة، فغمرتني الدموع. كانت تلك اللحظة تتويجًا لكل الجهد والسهر واليأس والشجاعة.

في وحدتي تلك، شعرت بروح إبراهيم تحلق حولي. كان بعيدًا، ولكن حضوره كان حاضرًا، ينساب عبر الذكريات والكلمات. أغمضت عيني، وتخيلت وجهه يبتسم لي بفخر وحب. شعرت بوجوده كنسيم لطيف يمر عبر قلبي، يملأه بالسكينة والطمأنينة.

تنفست بعمق، وكأني أستنشق عطر النجاح والإنجاز. كانت تلك اللحظة خاصة جدًا، تمثل بداية جديدة وفصلًا مشرقًا في حياتي. رغم الوحدة الظاهرة، لم أكن تعيسة، كنت أسعد ما يمكن وأنا أمسك مولودي الأول. احتضنه كأم لم تنجب منذ عشرات السنين. نظرت إلى النافذة حيث كانت الشمس تغرب ببطء، تلون السماء بدرجات من الذهبي والبرتقالي.

شعرت بالسلام والرضا يتسللان إلى قلبي. علمت أن المستقبل يحمل في طياته الكثير من التحديات، لكني كنت مستعدة لمواجهته بكل قوة وإصرار، بروح مليئة بالأمل والتفاؤل. شكرت السيدة ندى وأخذت تلك النسخ، وطوال الطريق ظللت أفكر لمن أهديها. وضعت توقيعي على نسختين فقط من تلك المجموعة، وحين وصلت، دخلت المنزل بهدوء. ذكرتني كل زاوية فيه بالمعارك اليومية التي خضتها من أجل تحقيق حلمي. وجدت أبي في غرفة المعيشة، على كرسيه القديم، يقرأ جريدة

بوجه متجهم. وقفت للحظة، أجمع شجاعتي وأستعد للخطوة التي ترددت في اتخاذها.

تقدمت نحوه بخطوات مترددة، وقلبي يخفق بشدة. وقفت أمامه، مددت يدي المرتجفتين بالكتاب نحوه، وقلت بصوت متهدج: أبي، هذا هو كتابي الأول. أردت أن تكون أول من يحصل على نسخة.

رفع رأسه ببطء، نظر في عينيّ، ثم إلى الكتاب. لمعت عيناه بلمعة غامضة. أخذ الكتاب مني بصمت، قلَّبه بين يديه، متفحصًا الغلاف الذي يزينه اسم ابنته.

رماديتي همس بصوت مبحوح، وكأن الكلمات تثقل لسانه. كان الزمن قد ترك آثاره على وجهه، وعيناه تعكسان ندوب السنوات الماضية.

لم أكن أعتقد أنكِ ستصلين إلى هذا اليوم، وئام... قال بصوت خافت، تكاد كلماته تتلاشى في الهواء، كنتِ دائمًا قوية، وأنا... لم أكن أرى ذلك.

انهمرت دموعي، لم أستطع كبحها. جلست بجانبه، وأمسكت بيديه. وقلت بصوت يرتجف من الألم والأمل: كل ما أردته أن تفخر بي، كما كنت أحلم أن أفخر بك. هل يمكننا أن نبدأ من جديد يا أبي؟

نظرت في عينيه، أبحث عن أثر من الحب الذي فقدته لسنوات. رأيته يبكي لأول مرة في حياته، بكى بحرقة، نادمًا على كل لحظة ضاعت في الخلاف

والعناد. ثم، فجأة، ضمني إلى صدره. كانت تلك اللحظة التي انتظرتها لسنوات، العناق الأول الذي شعرت فيه بدفء أبي الحقيقي. كان عناقًا يحمل في طياته كل مشاعر الندم والحب والألم التي تراكمت على مر السنين.

شعرت بدموعي تغمر وجهي وأنا أبكي في حضنه، وكأني أفرغت كل الألم الذي عشته منذ طفولتي. احتضنني أبي بقوة، وكأنه يحاول أن يعوضني عن كل تلك السنوات، وكأنه يريد أن يحميني من كل ما أذاني.

بالطبع، وئام. أنا آسف... آسف لكل شيء. دعينا نبدأ من جديد.

في تلك اللحظة، شعرت أن الجروح القديمة بدأت تلتئم. جلست بجانبه، أحكي له رحلتي الطويلة. كان يصغي وكأنه يسمعني للمرة الأولى. كانت بداية لصفحة بيضاء، مليئة بالأمل والمغفرة، فصل جديد طال انتظاره في علاقتنا.

بداية جديدة

شعرت بالأيام تركض، وها قد أتى اليوم الذي سيصل فيه إبراهيم.

اليوم الذي انتظرته بشوق حل أخيرًا بعد وقت طويل من الانتظار، ومتابعة أخباره على صفحته في إنستجرام . ارتديت أجمل ثيابي، ووضعت لمساتي الأخيرة بابتسامة متفائلة. أخذت نسخة من رماديتي ، ووضعت توقيعي عليها بكل عناية موقنةً أن كتابي سيكون هديتي المثالية له.

وصلت إلى المطار مبكرًا. جلست في صالة الانتظار أراقب بلهفة الشاشات وهي تعلن وصول الرحلات، وأتخيل لحظة اللقاء، لحظة نظراته حين يراني وقد صرت صحفية وكاتبة، لحظة الفخر التي انتظرتها طويلًا.

وأخيرًا، خرج إبراهيم من بين القادمين. بدا أطول وأكثر وسامة مما أحتفظ به في ذاكرتي. التقت أعيننا للحظة، لحظة شعرت فيها أن الزمن توقف. ابتسمت ابتسامة عريضة تفيض بالشوق والحنين. لكن، في اللحظة نفسها، رأيته يلتفت... ويبتسم لامرأة أخرى.

رأيته يعانق يدها بقوة. وتكسّر قلبي في داخلي كزجاج هشّ، تساقط إلى ألف شظية. دمعة حارقة انزلقت على وجنتي، بينما كانت يدي المتشبثة بالكتاب ترتجف. كل أحلامي التي نسجتها حول عودته تحطمت أمام عيني.

تجمدت في مكاني، لا أقوى على الحراك. العالم يمضي، الناس يزدحمون حولي، وأنا أقف وحيدة تمامًا. حاولت أن أستمد من كتابي قوة، احتضنته بقسوة وكأنه آخر ما تبقى لي. لكن دموعي غلبتني، تنهمر بحرقة، وصوت قلبي المحطم يعلو على ضجيج المطار.

غادرت ببطء، مثقلة بخيبة تتجاوز جسدي. تمنيت لو عاد إبراهيم وحيدًا، كما تركني، ليمنح حبنا فرصة أخرى. لكنني أدركت أن الماضي لا يعود، وأن عودته لم تكن لي.

ربما عاد إبراهيم، لكنه لم يعد وحيدًا. وأنا... لم أعد صالحة لتلك المسميات العاطفية. ما عاد لي سوى أن أبدأ من جديد، هذه المرة بدونه.

❊ ❊ ❊